

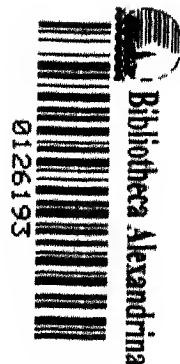
قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٤ »

الجزء الأول



الدكتور
أحمد محمد أبو حنى



قَادَةُ الْفِكْرِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ

« ٤ »

أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيدِ

الجزء الأول

تأليف

الدكتور

أحمد محمد الحفني

أستاذ اللغة الأدب المساعد

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

مستند الطبعة والنشر

مكتبة النهضة المصرية بالجيزة

١٨ شارع كامل مندي

مقدمة

أحمدك اللهم ، وبك أستعين .

وبعد

١ — فقد اتصلت بأبي حيان التوحيدي عن بعد ، حينما قرأت على كَجَلر بعض موضوعات من كتابه (المقابسات) ، ثم بضعة موضوعات من كتابه (الهوامل والشوامل) ، ولكن هذا الاتصال العاجل أوحى إلى " بكبار علمه والإعجاب بفنه .

ثم اتصلت به عن قرب قريب ، وعشت معه مدة من الزمن ، حينما شرعت أكتب هذه الدراسة ، فعظم إكبارى لعلمه ، وإعجابى بفنه .

وأيقنت أن الرجل منهبون القدر ، مهضوم المكانة . وأيقنت أنه أجدر بالدراسة والتقدير من أرباب الصناعة اللفظية الذين ذاعت شهرتهم في حياتهم ، وبعد مماتهم ، وما زالوا يُدرسون إلى اليوم على أنهم زعماء مدرسة ، أو أصحاب طريقة في الكتابة ، كابن العميد وابن عباد والقاضي الفاضل ولسان الدين ابن الخطيب .

والحق أن أبا حيان يَفْضُل هؤلاء جميعا ، وَيَفْضُل أضرابهم من كتاب الزخرف والزينة ، كبديع الزمان الهمداني والحريري .

نعم ، يَفْضُلهم بمدة مزايا ، سنمرض لها في الجزء الثاني من الكتاب ، حين توازن بينه وبين كتاب عصره .

وحسبني أنه كاتب يحفل بالفكرة وبالعبارة معا ، وأنه يستلهم مشاعره

وعواطفه ، كما يعتمد على التأنيق والافتنان ، وأنه قد جال بقلمه الفنى فى ميدان العلم والمعرفة ، فطوَّع النثر للترجمة عن الثقافة فى تعبير من الأدب الرفيع ، وبهذا أكمل ما بدأه الجاحظ من قبل .

أما هؤلاء فلم يكونوا كذلك ، لكنهم نالوا من الشهرة والمجد ما حرمه أبو حيان ، لأن بمضهم كانوا وزراء ، وكان لهم من نفوذهم السياسى ما أضفى عليهم هالة من المجد ، وأضاف إلى أدبهم تقديرا لا يستحقه ، ولأن الذوق الأدبى قد ضمف وانحرف منذ القرن الرابع ، فصار الأدب الرفيع هو المفضل بالصناعة والزينة ، وإن كان خلوًا من العاطفة ، فقيرا فى الفكرة ، تافه الموضوع .

وكان هذا من أسباب غيب أبي حيان ، وحرمانه المسكنة التى تبوأها أستاذه الجاحظ من قبل .

ولو أن عصره أنصفه ، أو لو أن العصور اللاحقة أنصفته ، لكان مكانه الآن فى الصدارة من كتاب العربية الأفاضل ، ولاحتل منزلة عالية فى تاريخنا الأدبى على مر الزمن .

وإنه ليسعدنى أن أساهم اليوم فى إنصاف أبي حيان ، وفى التنويه بعلمه وأدبه ، وفى بيان ما له وما عليه .

٢ — ولم يكن بُدُّ فى هذه الدراسة من إلمامة بالآثرات فى أدبه وفى حياته وفى مكانته ، قبل دراسة أدبه نفسه .

لهذا تحدثت عن عصره السياسى والعلمى والأدبى ، وتحدثت عن معالم حياته ، وأخلاقه ، وثقافته ، وصلاته بوزراء عصره ، وبؤسسه ، وتدينه ، وتصوفه ، وأمانته فى النقل والرواية ، واتهامه بالزندقة وبالوضع ، وإحراقه كتبته .

ثم عرضت لمؤلفاته كلها ، وحملت منها ما سَلِمَ من عوادي الدهر ، وذكرت من كل كتاب نماذج .

ثم درست في تفصيل خصائصه الفكرية والفنية ، ورأيت أن هذه الخصائص لا تتكشف على حقيقتها إلا بالموازنة المنصفة بينه وبين كتاب عصره .

وإذ كان أبو حيان كلياً بالجاحظ ، وَرَدَّ دَ في القديم والحديث أنه خليفة الجاحظ ، كان لا بد من الموازنة بينهما .

وفي نهاية الدراسة خاتمة سجلتُ فيها ما هدتني إليه الدراسة من جديد .

٣ — وقد استقيت الحقائق من ثلاثة منابع :

الينبوع الأول مؤلفات أبي حيان نفسها ، لأنها ناطقة صادقة في تصوير كثير من أحواله وأحوال عصره .

والينبوع الثاني : دراسة القرن الرابع والإلام بأحواله السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية .

والينبوع الثالث : ما كتبه القدماء عن أبي حيان — على قلته وتحامله ، فيما عدا ما كتبه ياقوت الحموي — وما كتبه المعاصرون .

ووجدت أننا قد اختلفنا في المنهج والنتائج والأحكام ، وقد اتفقنا .

ولست أزعم أنني — فيما خالفتُ فيه — صاحب الرأي الصائب ، لأن من المجازفة أن يدعى باحث لنفسه كل الصواب ، فإن الدراسات تكشف في كل يوم عن جديد ، وتعيط الستار عن حقائق كانت مجهولة بالأمس .

— ٦ —

٤ — وبعد

فهذا هو الجزء الأول ، وبعقبه الجزء الثانى مكملًا لموضوعات الدراسة -
وأرجو أن تكون دراسة موفقة نافعة ، وما التوفيق إلا من عند الله

أحمد محمد الخوفى

القاهرة

فى { جادى الثانية ١٣٧٦
يناير ١٩٥٧

عصره السياسى

عاش أبو حيان فى القرن الرابع الهجرى ، إذ نَصَلَ جلال الخلافة وجمالها ،
وإذ تفككت مُمرأها ، وتشتت شملها ، وصارت وحدة الإمبراطورية الإسلامية
إلى فرقة ، وجمعها إلى شتات ، وقوتها إلى ضعف .
وفى هذه الأبيات التى ذكرها أبو حيان عن عَكْوَى بالكوفة ما يشمر بالخطر
الدام الذى غفل عنه العباسيون أو تغافلوا :

أرى نارا تُشَبُّ على يَفَاع لها فى كل ناحية شُماع
وقد رقدت بنو العباس عنها ونامت وهى آمنة رِثاع
كما رقدت أُمِيَّةٌ ثم هبت لتدفع حين ليس لها دفاع
وهذه الأبيات نظيرة أبيات لنصر بن سَيَّار ، أرسلها إلى مروان حين جاشت
خراسان بالمسودة :

أرى تحت الرماد وميض نار فيوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالمودين تُذَكَّى وإن الشر مبدؤه الكلام
فقلت من التعجب : ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن يك أصبحوا وثووا نياما فقل: قوموا فقد حان القيام^(١)

١ - كان الضعف السياسى ، ونفوذ الخليفة العباسى ، قد بدأ يستملن ويشيع
منذ تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ هـ فنذرتولى قرب الترك إليه وآثرهم على

الفرس ، وكان سنيا غالبا في مذهبه ، مبعضا للشيعه ، ومعلوم أن أكثر
الفرس شيعة .

ولم يكن يدور بخلد أن خدمه الأتراك الذين ناصرهم على الفرس هم الذين
يطيحون به ، وهم الذين يسلبون سلطانه ، ولن يجد من الفرس من يؤازره أو يدفع
عنه . وانتهى بهم الأمر إلى أن تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله ، وقتلوه .
سنة ٢٤٧ هـ (١) .

ومنذ ذلك الوقت اشتد شرهم ، وعظم بلاؤهم ، وصار من المألوف أن يستعين
القواد الترك بالابن على أبيه ، وبالأخ على أخيه ، فاستكثر الخلفاء وأولياء عهدهم
من هؤلاء الأتراك ، ليمتزوا بهم ، وليتخذوهم عيوناً لهم ، حتى شَرِكتْ بهم
بغداد .

اكتنهم لم يكونوا إلا معاول للتخريب ، والتلاعب بسادتهم ؛ لأنهم منذ قتلوا
المتوكل صار الخلفاء بأيديهم كالأسرى ، إن شاءوا أحيوهم ، وإن أرادوا خلعهم ،
وإن رغبوا قتلهم (٢) .

وصار بقاء الخليفة في منصبه رهنا بإرادتهم وحدهم ، وتعامل الناس ذلك ،
وتسددوا به ، فإنه لما تولى المعتز أحضر أصدقاؤه المنجمين وسألهم : كم يبقى
في الخلافة ؟ وكـم يعيش ؟ فقال أحد الطرفاء — وكان بالجلس — : أنا أعرفُ
من هؤلاء بمقدار خلافته وعمره . قالوا : فكم تقول ؟ قال : ما أراد الأتراك
ببقاء بقي . فضحك كل من كانوا بالجلس (٣) .

٢ — في ذلك القرن كان نفوذ الأجناد من الترك قد ازداد قوة ، وكانت

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ٢١٥

(٢) ، (٣) الفخرى في الآداب السلطانية ٢٢٠

سلطة الخلفاء قد تفاقم ضعفها ، ونظر الولاة إلى ضعف الخلفاء ، واستبداد الترك
بشئون الحكم والسياسة ، فطمعوا في الاستقلال بما تحت أيديهم من ولايات .
وقد تجلت الحركات الانفصالية منذ عهد الخليفة الراضى بالله ، فهو آخر خليفة
انفرد بالحكم ، وهو أول خليفة انفلت السلطان من يده .

فى السنة الأولى من ولايته (٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م) عظم أمر مرادويج
بأصفهان ، وقيل إنه كان يريد أن يستولى على بغداد ، وينقل الدولة إلى الفرس ،
ويمحو دولة العرب ، لكن غلماناه قتلوه .

وفى أيامه سلبه الأتراك السلطة كلها ، واستولى الأعاجم وأرباب السيف
والأمراء على الدولة ، وجبوا الأموال ، وكفوا يد الخليفة ، وقدروا له يسيرا
من المال^(١)

وفى عهده تمزقت الخلافة إلى دويلات :

فاستولى ابن رائق على البصرة وواسط .
واستبد البريدى بالأهواز .

واستقل بنو بويه بفارس والرمي والجليل وأصفهان من (٣٢٠ إلى ٤٤٧ هـ) .
وانفرد الديلم بطبرستان وجرجان وكرمان .

وقامت الدولة السامانية فى خراسان وما وراء النهر من (٢٦١ إلى ٣٨٩) .
ثم خلفتها الفزنوية بالهند وأفغانستان (٣٥١ — ٥٨٢) . وأقام بنو حمدان
ملكهم فى الموصل وديار بكر ومصر ورييمة (من ٣١٧ إلى ٣٩٤) .

واستقل الإخشيدون بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٧) ثم خلفهم الفاطميون .
وصارت اليمامة والبحرين بيد القرامطة .

وظهر الفاطميون بالمغرب وإفريقية سنة ٢٦٧ ثم بمصر والشام من
٣٥٧ إلى ٥٦٧ هـ .

واستقل عبد الرحمن الناصر بالاندلس .

وإذا فلم يبق للخليفة العباسي إلا بغداد وملحقاتها^(١) .

والذي يلاحظ أن هؤلاء المنفصلين ليسوا من جنس واحد ، فالسامانيون
والبويهيون من الفرس ، والإخشيدون والغزنويون من الترك ، والحمدانيون
والفاطميون والأمويون من العرب .

٣ — ولربما كانت النكبة أخف وطأة لو أن هذه الدويلات المنفصلة كانت
على وفاق فيما بينها وإيثار للسلام ، ولو أنها كانت تتآخى وتعاون على صد المغير
من الروم . لكن النكبة كانت مضاعفة ، لأن بأس الحكام كان بينهم شديدا ،
قويهم يطمع في ضعيفهم ، وضعيفهم يحقد على قويهم ، وذو البأس يتطلع إلى إضعاف
ذو البأس .

٤ — ولم يكن الأمن في الداخل مستقرا ، ولم تسكن الثورات تهدأ ، فابن
رائق يستولى على البصرة ، ثم على دمشق . والبريدى يستولى على خوزستان ثم
على بغداد . والمرزبان بن بختيار يثور بالبصرة ، وابن بقمية يثور بواسط ٣٦٤ هـ^(٢) .

والبويهيون يزحفون على بغداد سنة ٣٤٤ هـ .

(١) تجارب الأمم لمسكويه ٥٥٢/٥ والسكامل لابن الأثير ٢٤١/٨ وتاريخ أبي الفداء

٣٩٨/٢ والفخرى ٢٥٢

(٢) تجارب الأمم ٣٤٤/٦

. والآثراك والديلم يتربص بعضهم ببعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، وأحيانا يتحاربون في دار الخلافة نفسها ، فينقسم سكانها ويحارب بعضهم بعضا . حدث هذا في الفتنة التي نشبت سنة ٣٦٣ هـ . إذ انضم السنية إلى سبكتكين التركي ، وانضم الشيعة إلى بختيار الديلمي ، واستضافوا الشيعة ، وناصبوهم الحرب ، فتحصن الشيعة في أرباض السرخ ، ولكن الحرب استمرت ، وسفكت فيها الدماء ، واستبيحت المحارم ، وأحرق السرخ مرة ثانية بعد حريقه الأول ، فافتقر التجار ، وغلبهم العيارون على أموالهم وبضائهم وحرمهم ومنازلهم ، وانتثر النظام ، وعجزت الحكومة . وصارت المصيبة بين السنية والشيعة دائرة على أمور الدين والدنيا معا ، بعد أن كانت من قبل مقصورة على الدين وحده^(١) . وفي هذا القرن عاث القرامطة فسادا بالمراق والشام ، وعيثوا بالحجاز ، وحذا حذوهم الخوارج ودعاة الفتنة والثوارت .

وثار الميارون في بغداد ثورات عدة ، لينالوا ما يحفظ حياتهم ، وكان أبو حيان من ضحايا ثورتهم سنة ٣٦٣ ، إذ ثاروا ثورة عاتية ، وجعلوا يحرقون ويدمرون وينهبون ، وامتدت أيديهم إلى الحى الذى يسكن فيه أبو حيان ، فنهبوا من منزله كل ما وجدوه من ذهب وملابس وأثاث ، وقضت جاريته من الخوف^(٢) .

٥ - ولم يستلم الخلفاء أنفسهم من الاعتداء على حياتهم ، فسكثرا ما خلعوا وحبسوا ، وكثيرا ما قتلوا شر قتلة .

فالأثرالهم الذين دبوا مع المنتصر مقتل أبيه المتوكل ، وأكبر أمراءه الفتح

ابن خاقان ، وولوه مكانه سنة ٢٤٧ هـ^(١) . وهم الذين خلعوا المستعين بن سنة ٢٥٢ هـ^(٢) ، وقتلوا المعتز بعد أن ضربوه ، وأقاموه في الشمس ، فسك رجالا ويضع أخرى من شدة الحر ، وكان بعضهم يلعنه ، وهو يتقو سنة ٢٥٥ هـ^(٣) .

وخلعوا المهتدي وأسروه حتى مات سنة ٢٥٦ هـ^(٤) وقتلوا المعتز حتى ورموا جثته سنة ٣٢٠ هـ^(٥) وخلعوا القاهر ، وسملوا عينيه ، وحبسوه سنة ٢ وسملوا عيني المتقي لله وخلعوه سنة ٣٣٣ هـ^(٦) .

فلما استولى البويهيون على بغداد تلاعبوا بالخلفاء كما كان يتلاعب الأ فقد كان الخليفة حينما هجموا على بغداد هو المستكفي بالله ، فلما بمنز الدولة البويهى وصل بغداد خاف واضطرب ، وأرسل هدايا إلى بمنز ثم قابله بمنز الدولة ، فأعطاه الخليفة الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وهقد له وهو الذى لقبه بمنز الدولة ، ولقب أخاه عماد الدولة .

لكن بمنز الدولة دب نكاية بالخليفة بعد ذلك بقليل ، إذ خلعه ، وسمل واعتقله حتى توفي سنة ٣٣٨ هـ^(٨) . وتولى بعده المطيع لله سنة ٣٣٤ هـ ، فأشار عليه سبكتكين حاجب بمنز الدولة البويهى أن يتنحى عن الخلافة ولده الطائع ، فقتل سنة ٣٦٣ هـ^(٩) .

وقضى الطائع بمنصبه الاسمى ثمانية عشر عاما ، وكان كسابقيه من

(١) الفخرى ٢١٥	(٢) الفخرى ٢١٩	(٣) الفخرى
(٤) الفخرى ٢٢٣	(٥) الفخرى ٢٣٩	(٦) الفخرى ١
(٧) الفخرى ٢٥٦	(٨) الفخرى ٢٥٨	(٩) الفخرى ١

سليب الحول والطول ، ألعوبة في يد آل بويه ، وانتهى أمره بأن قبض عليه بهاء الدولة البويهى وخلفه سنة ٣٨١ هـ^(١) .

وخلفه ابن عمه القادر بالله ، وتزوج بنت بهاء الدولة البويهى ، وفى عهده ظهرت دويلات كثيرة بالشرق والغرب ، وبقي فى الخلافة إلى أن مات سنة ٤٢٢ هـ^(٢) .

٦ — ولا شك فى أن خلفاء بنى العباس فى القرن الرابع كانوا رموزاً فحسب ، بل كانوا رموزاً لا مهابة لها ولا جلال ، فهم رموز للمنتصب الدينى ، لكنهم محرومون التوقير والإجلال .

وكان الأمر كله بيد المتغلبين والحاكين ، يُصَرِّفونه كما يشاءون ، غير مقيدين برعاية المصالح وتوخى العدالة ، لذا تفشى الحراب والفساد .

وانصرف الخلفاء منذ المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) عن الملك والسياسة ، واستسلموا للشهوات ، وأسلموا مقاليد شئونهم للنساء القصر وغلماهنه .

يقول موير : « قد جرَّحَ حكم هذا الخليفة البائس الطويل الخلافة إلى أحط الدرجات . وكان الخليفة فى بغداد ألعوبة فى أيدي الحرس الأجانب ، وكانت النساء لها السكامة العليا فى شئون الدولة . وأصبح العرش موضع سخريه فى الداخل ، وهدفا لطمع المغيرين من الخارج . ولم تعد بغداد المدينة القادرة على سد هجمات المغيرين ، بل تدهورت الأخلاق فيها ، ولعبت الدسائس والاضطرابات دوراً خطيراً »^(٣) .

ولم يبق للخليفة إلا منصبه الاسمى الرسمى ، فحكام الأقاليم — ما عدا

(٢) الفخرى ٢٦٠

(١) الفخرى ٢٦٠

(٣) الدولة العباسية ١٩٥ حسن خليفة

الفاطميّين — يذعنون له بالسلطة الدينية ، ويمثون إليه الهدايا ، ويخطبون على المنابر باسمه ، ويدعون له .

ثم لما تلقب الفاطميون بالخلفاء منذ فتحوا القيروان سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م)
لقب عبد الرحمن الناصر في الأندلس نفسه بالخليفة ، وتسمى بأمر المؤمنين
سنة ٣٥٠ هـ ^(١) (٩٦١ م) .

٧ — كان من الطبيعي أن يجرى هذا الضعف المستسلم خصوم الدولة على
العلم فيها ، واقتطاع بعض أرجائها ، وما الذي يمنع الروم من الهجوم على مُسلّك
متفرق الكلمة ، مبعثر القوة ، مستباح لكل طامح أو طامع ؟

أغار الروم على أطراف الدولة غارات عدة: أغاروا عليها سنة ٣٠٣ و ٣١٤ و ٣١٥ .
واستولوا سنة ٣١٤ (٩٢٦) على مدينة ملطية ^(٢) ، ثم في عام ٣٣١ هـ على
ديار بكر ، واقتربوا من نصيبين ، وظهروا على المسلمين ، وشغل حكام المسلمين
بولاياتهم الخاصة ، كما فعل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر ، وأخذت دماهم
الإسلام تتداعى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣) في خلافة أبي إسحاق إبراهيم الملقى لله ^(٣) .

ثم استمرأ الروم ضعف المسلمين ، فاستولوا على جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ
(٩٦١) ، واستولوا على جزيرة قبرص سنة ٣٥٥ ، وفيما بين ذلك فتحوا طرطوس ،
ثم فتحوا حماة وحمص وأنطاكية سنة ٣٥٧ ، وبعد ذلك أغاروا على الرها ودخلوا
ديار بكر سنة ٣٦٢ وقتلوا وسبوا وخرّبوا وانهكوا الحرّات .

(١) أبو الفداء ج ٣

(٢) تجارب الأمم لسكويه ٥ / ٢٤٩

(٣) مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٧٣

وفي عام ٣٦٤ (٩٧٤) فتحوا بعلبك وبيروت ، فافتدى أهل دمشق أنفسهم
بغرامة يدفعونها للروم في كل عام^(١) .

٨ — على أن هذا الانكماش في غرب المملكة الإسلامية كان يقابله
في بعض الأحيان توسع في شرقها . فقد فتحت بلوخستان سنة ٣١٣ هـ (٩٢٥) ،
وأسلم من الترك مئات الألوف^(٢) .

ثم أوغل محمود بن سبكتكين في فتوحه بالهند .

(١) الكامل لابن الأثير ٤٥٤/٨ وتجارب الأمم ٣٨٦/٦ والنجوم الزاهرة ٤٣٥/٢ .

(٢) تجارب الأمم ٢٤٠/٦ ، ٢٤٩ .

عصره العلمى والأدبى

- ١ -

من الحقائق المقررة فى تتبع الحركات العلمية والأدبية أنها لا تتمشى مع المصور السياسية مشى التلازم المحض ، فتطفر مع السياسة وتهبط بهبوطها ، لأن السياسة حركة قد تجىء مفاجئة ، وقد تجىء على مهل وتدبير . أما الحركة العلمية والأدبية فلا بد لها من تمهيد طويل ، ولا بد لانقطاعها أو ضعفها من مهلة زمنية تطول أو تقصر .

ومن هنا ضعفت الدولة سياسياً كما رأينا ، لكن النشاط العلمى والأدبى دأب فى طريقه إلى غرضه .

ولذلك أسباب ، أهمها أن التيار الذى كان قوياً مندفعاً فى القرن الثالث ما زال على قوته واندفاعه فى القرن الرابع ، ولم يتأثر رجأة بالعوامل السياسية . ثم إن الملوك والأمراء الذين صاروا قائمين بشئون الحكم والسياسة وجدوا الخير لهم فى تقريب العلماء ، وتشجيع الأدباء ، سواء أكانوا يبتغون من ذلك محاكاة خلفاء بنى العباس الأولين ، أم يريدون أن يُصنّفوا على ملكهم هالة من الأبهة والمجد وحسن الأجدوة ، أم يطمحون إلى أن يمدحهم الأدباء ليسير ذكرهم فى الناس ، أم يتخذون من العلماء والأدباء أعوانا لهم فى شئون الملك والسياسة .

وقد نجم عن ذلك أن صارت العواصم تزخر بالكبار من رجال العلم والأدب ، وأن صارت تتنافس بغداد وحلب وقرطبة والقاهرة وأصفهان وشيراز وهمدان ونيسابور وسمرقند والرعى .

وهذه بحالة تبين مدى تشجيع الولايات للعلم والأدب .

١ — اشتهر آل بويه بالعلم والأدب ، فكان عز الدولة بن الممر شاعرا ، وكان عضد الدولة وابنه تاج الدولة أدبيين ، وكذلك كان أبو العباس بن ركن الدولة ، على أن عضد الدولة كان نابغا في عدة علوم .

لذلك ظهر ميلهم في اختيارهم وزراءهم والمقربين إليهم ، فكان أكثر وزراءهم كتابا أو شعراء أو علماء ، فممن الدولة استوزر الحسن المهلب ، وركن الدولة استوزر ابن العميد ، ومؤيد الدولة وأخوه نضر الدولة استوزر ابن عباد .

وكان نشاطهم في تشجيع العلماء والأدباء محمودا ، فإن عضد الدولة كان يغمهم بمطاياء ، وكان مجلسه حاليا بالمباحثات والمناقشات ، وهو الذي ألف له أبو على الفارسي كتاب (الإيضاح والتكملة في النحو) وألف له أبو إسحاق الصابي كتاب (التاجي) في تاريخ آل بويه ، ورحل إليه المتنبّي ، ونال عطائه الجزل^(١) .

٢ — وكان الفزنويون مشغولين بالفتح ، لسكن حروبهم لم تصرفهم عن مناصرة العلم والأدب ، ولم تشغل السلطان محمودا عن اجتذاب الأدباء والعلماء إلى حاضرة ملكه ، فهو الذي كتب إلى أمير خوارزم يقول له : علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين ، فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسي ، ونستفيد من علمهم » . وهو الذي أشار على الفردوسي أن يتم الشاهنامه التي بدأها الدقيق باقتراح نوح بن منصور الساماني .

٣ — أما بنو حمدان بالموصل وحلب فقد كانوا عربا خيلصا ، وكانوا شعراء أو أدباء .

(١) يتيمة الدهر للشمالي الجزء الثاني .

وحسبنا أن نعلم أن سيف الدولة كان أمل الأدباء والعلماء في عصره ، وقد ازدان قصره بالمتنبي (قضى عنده تسع سنوات) وأبي فراس ابن عمه ، والسري الرضاء ، وأبي العباس النامي ، وأبي الفرج البغداد ، وابن نباتة السعدي ، وأبي الفرج الأصفهاني ، وعبد الرحيم بن نباتة ، والفارابي وابن خلوية^(١) .

٤ — وأما الفاطميون فقد استقروا بالقاهرة ، واتخذوها عاصمة لدولتهم الكبيرة ، وجعلوا ينافسون بغداد في مظاهر الخلافة والآبهة ، وفي الحفاوة بالعلماء والأدباء ، وكانت عربتهم الخالصة مُذْكية لهذه الحفاوة .

فالعلم أنشأ الأزهر ، ليكون مثابة لعلماء الشيعة ، والعزير أنشأ في قصره خزانة كتب ، ملأها بالمؤلفات ، وحاكاه في ذلك جمع من أهله . ثم بنى الحاكم دار الحكمة ، واستكثر فيها من الكتب ، وتأنق في تأسيسها وزخرفتها ، ووقف عليها أملاكا تُفيل عليها ، ووظف لها مشرفين ينظمون طرائق الانتفاع بها ، وأباح للمترددين عليها أن يسعدوا مناظرات فيها ، وأعد بها أقلاما وأوراقا ومحابر للذين ينقلون من كتبها . وهو الذي أنشأ المرصد الحاكمي على جبل المقطم . وكان كثير من الخلفاء الفاطميين وأمرائهم أدباء ، يتذوقون القول الرائع ، ويكافئون عليه بالمطاء الجزل .

وتم في القرن الرابع نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية .
ومن أشهر النقلة :

أبو بشر متى بن يونس القسطنطيني (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ)^(٢) .

(١) يتيمة الدهر للشعالي الجزء الأول (٢) طبقات الأطباء ٣٣٥/٢

وأبو زكريا يحيى بن عدى النطقى (المتوفى حول سنة ٣٦٤ هـ)^(١) .

وأبو على إسحاق بن زُرعة (المتوفى سنة ٤٤٨ هـ)^(٢) .

وأبو الخير بن الحسن بن الخمار (ولد سنة ٣٣١ هـ)^(٣) .

وهو من تلاميذ يحيى بن عدى .

وقد اتصل أبو حيان التوحيدى بهؤلاء وبغيرهم .

وتلقف العلماء والأدباء الثروة العظيمة التى خلفها لهم سابقوهم من علوم لغوية
وشعرية ومترجمة ، وكان عصرهم باعثا لهم على الانتفاع بما خلفه أسلافهم ، وعلى
الابتكار والتجديد .

ومن هنا تبين فى الحركة العلمية والأدبية عدة ظواهر :

١ — استكملت العلوم أسباب النضج والنماء ، وظهر ذلك جليا فى المعاجم
اللغوية ، والفلسفة ، والطب ، والطبيعيات ، والتساريخ ، وتقويم البلدان ،
والسياسة والاقتصاد ، والنحو ، والبلاغة ، سواء فيما دونوه أو فيما نقلوه من
اليونان والفرس والهنود .

٢ — انتهى تطور النثر الفنى إلى أسلوب خاص ، إذ امتاز أكثر كتابه
بافتنائهم فى التعبير ، وجنوحهم إلى الصناعة والسجع ، واحتفالهم باللفظ ، وميلهم
إلى التطويل ، وإكثارهم من عبارات التفخيم والتعظيم والتهويل ، وتقسيمهم
المعبرة إلى جل قصار أو طوال بينها اتران وانسجام ، وإيثارهم للخيال الشمرى ،
واقتراسهم من الشعر واستشهادهم به .

٣ — ظهرت القصص والمقامات .

٤ — كثرت المکتبات الخاصة والعامة .

٥ — ازدهر المذهب الشيعى ، لأن آل بويه فى الشرق شيعة ، ولأن الفاطميين فى مصر أشد منهم تشيما .

٦ — شاعت فى العالم الإسلامى مذاهب شتى فى القرن الرابع ، وتزاحمت فى البلد الواحد ، واشتد بينها الصراع . ففى بغداد تحل شتى تجتمع لتتناحر .

وفى العراق والأهواز وفارس وأصبهان وخراسان مجوس من أتباع زرادشت ، يعبدون النار .

وفى البصرة قدرية وشيعة وحنابلة .

وفى مصر سنية وشيعة .

وفى خوزستان معتزلة .

وفى كل إقليم شيعة وحنابلة وشافعية .

وكثيرا ما تحدث الفتنة فى بغداد وغيرها بين الحنابلة والشافعية ، أو بين

الشيعة والسنية ، فيتقاتلون بالسيف ، ويكاد يفنى بعضهم بعضا .

لهذا نسمع كثيرا عن تقيية بعض الملوك ومداراتهم وإخفائهم حقيقة مذهبهم ، صيانة لأرواحهم من عدوان العامة أو تنكيل الحكام ، وكانت تقيتهم هذه سببا فى نشأة الجماعات السرية من أرباب التفكير والفلسفة .

٧ — ويظهر أن قيام دول غير عربية قد أرضى الأعاجم ، وذهب ببعض تعاملهم على العرب ، تخفت حدة الشعوبية ، بعد أن صارت بعض الأقاليم خاضعة لبنى بويه ، وبعد أن قوى نفوذ القرامطة فى العراق والحجاز والشام ، وبعد أن قامت الدولة الغزنوية الشيعية فى خراسان وما وراء النهر وشمال الهند .

٨ — ظهرت شخصية العواصم والمدن واضحة فى نسبة علماءها وأدبائها

إليها ، كالأصفهاني والرازي والمروزي والبخاري والقشيري والنيسابوري .
وقد كان الغالب في النسبة قبل ذلك أن تكون إلى الأصل أو إلى الصناعة
كالمازني والفراء والرجاج .

٩ — كانت اللغة العربية هي لغة الأدب والحكومة في القرن الرابع .
فأكثر الفرس يتكلمون بها ، ويؤلفون ، وينشئون . ودواوين الحكومة
تصطنعها لغتها الرسمية .

والمدن السكار مثل نيسابور وشيراز والري وأصفهان ومرو تزخر بالثقافة
العربية ، وتمتلىء بالدارسين للعربية والمؤلفين بها .

١٠ — وقد خلفت هذه العواصم المستحدثة بغداد في أنها صارت مثابة
الأدباء والعلماء . ذلك أنهم كانوا قد اعتادوا في العصر الذهبي للدولة العباسية أن
يؤموا بغداد ، ليعرضوا عليهم وأدبهم ، وينالوا ما يريدون من غنم مادي ومعنوي ،
فصاروا في القرن الرابع يؤمون العواصم الجديدة ، وإن كانوا من بغداد نفسها ،
كما فعل أبو حيان .

١١ — اصطفي شعير بعض الشعراء بصيغة إقليمية ، واصطفي شعير آخرون
بالفلسفة كأبي العلاء .

١٢ — وحسب القرن الرابع أن يتألق في سمائه عشرات من كبار الكتّاب ،
وعشرات من العلماء والفلاسفة ، فمن الكتّاب: الخوارزمي والصابي وبدیع الزمان
الهنداني وابن عباد وأبو الفضل بن العميد وأبو الفتح بن العميد والشریف الرضی
وأبو الفرج الأصفهاني وأبو إسحاق الصابي وأحمد بن يوسف وعلي بن الميزان الجرجاني .

ومن الفلاسفة والعلماء : ابن مسكويه والفارابي وابن سينا وابن دريد وابن
الأنباري وابن فارس والآمدی والباقلاني والرازي وابن حزم وابن شهيد وأبو أحمد
العسكري وأبو هلال العسكري والحامی والمرزبانى والتمالي .

معالم حياته

اسمه :

علي بن محمد بن العباس .

وكنيته أبو حيان ، وغلب عليه تلقيبه بالتوحيدى^(١) . والسبب في هذا
اللقب أن أباه كان يبيع نوعاً من التمر بعداد اسمه التوحيد^(٢) . وهو الذي يريده
المتنبى في قوله :

يترشفن من دمي^١ رشقات هن فيه أحلى من التوحيد^(٣)

ويرى ابن حجر العسقلاني أن هذا اللقب يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد
الذي هو الدين ، لأن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد^(٤) .

ولا نستطيع أن نرجح رأياً على آخر في تلقيبه بالتوحيدى ، فربما كان أبوه
يبيع هذا النوع من التمر ، وربما لقبه بالتوحيدى بعض معاصريه أو لاحقيه ممن
عرفوا مذهبه في التوحيد .

لكن الذي نوقن به أنه لم يعرض لهذا اللقب في كتاب من كتبه ، على
كثرة ما ذكر كنيته ، ولم يشر من بعيد أو من قريب إلى نسبه أو إلى أسرته .
ولقد رجع هذا الإغفال إلى شموه بأن أسرته من أوساط الناس ، فلا سبيل
إلى الحديث عنها ، أو الإلمام بطرف من تاريخها . ولقد نصيف إلى ذلك خشيته

(٢) تاج العروس مادة وحد

(٤) لسان الميزان ٦/٣٦٠

(١) معجم الأدباء ٥/١٥

(٣) ديوان المتنبى

من خصومه الذين لا يعرفون أصل أسرته ، والذين يعرفون أصلها . فليس من الحكمة أن يكشف عن حقيقة أسرته للذين يجهلون ، وليس من الحكمة أن يتحدث بهذه الأسرة إلى من يعرفونها ، لأنه في الحالين يفتح على نفسه باباً لا ينتظر من فتحه إلا الشر .

مولده :

كثيراً ما نجد عسراً في الكشف عن مولد عالم أو أديب أو عظيم من القرون الخالية ؛ لأن الناس لم يكونوا يقيمون مولد أبنائهم كما نعمل الآن . ولقد يرتبط مولد الشخص بحدث جليل ، يعين زمن استهلاله على هذه الأرض .

أما وفيات هؤلاء العلماء والأدباء فقلما تجهل ، وإن حدث فيها اختلاف ، لأنهم كانوا قد اشتهروا ، وذاع علمهم وأدبهم في الآفاق ، وهذا هو السر في أن كتب التراجم تعنى بزمن الوفاة أكثر من عنايتها بزمن الميلاد .

لكننا في تاريخنا لأبي حيان نألفي عُسْرَيْن : عسراً في تعرف مولده ، وعسراً في تعرف وفاته ، كأنما انفق الناس على إهماله ميتاً كما إهملوه حياً ، وكأنما أبي حظه المعضوم إلا أن يلزمه في الحياة والموت .

وقد حار دارسوه في تحديد ميلاده ، فاستظهر السندوبى أنه ولد سنة ٣١٢ هـ^(١) معتمداً على أنه كتب رسالة إلى القاضي أب سهل على بن محمد يعتذر فيها من إحراق كتبه ، وأرخها سنة أربعمائة ، وقال فيها : « وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد ، فإني في عشر التسمين ، وهل بعد السكبرة والعجز أمل في حياة لذيدة ؟ »^(٢) لكن هذا الاستنباط لا يستند إلى قوة ، فمن الجائز أن يكون قد ولد قبل ذلك أو بعد ذلك .

وأعفى الدكتور زكي مبارك نفسه من معرفة ذلك التاريخ « لا تسألني متى وُلد ، ولا أين وُلد ، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تسكن تطمع في مجد ، حتى تسقيد تاريخ ميلاده » (١) .

وإذا كنا نوافقه على الإقرار بالمعجز فإننا نخالفه في التعميل ، لأن إغفال أسرته لتاريخ ميلاده ليس نتيجة للخمول ، وإنما هو سنة غالبية على العصور القديمة كلها .

وفاته :

ولمسل المؤرخين لم يختلفوا في وفاة عالم أو أديب كما اختلفوا في وفاة أبي حيان ، وإنه لخلاف جسيم ، يرجع بوفاته إلى سنة ٣٦٠ هـ أو يمتد بها إلى ٤١٤ هـ . فأى خلاف ذلك الذي يفصل بين زمنييه أكثر من نصف قرن ؟

أما وفاته سنة ٣٦٠ هـ فتعتمد على ما ذكره أبو العباس أحمد بن أبي الخير زركوب الشيرازي في كتابه (شيراز نامه) من أنه سمع أباياه يقول إنه رأى مقبرة أبي حيان مكتوباً عليها أنه توفي سنة ٣٦٠ هـ (٢) .

وقد ذهب السيوطي إلى أنه توفي سنة ٣٨٠ هـ (٣) .

وكلا الرأيين محاب للصواب ، لأن أبا حيان كتب رسالة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد في رمضان سنة ٤٠٠ هـ (٤) ولأن السبكي يذكر أن أبا سعيد عبد الرحمن الأصبهاني سمع من أبي حيان بشيراز سنة ٤٠٠ هـ (٥) ، ولأن أبا حيان نفسه ذكر في رسالة الصداقة والصديق أنه بيض مسوداتها في رجب سنة ٤٠٠ هـ (٦)

(١) النثر الفنى في القرن الرابع ١٣٣/٢ (٢) شيراز نامه ١٠٩
(٣) بنية الوعاة ٣٤٨ (٤) معجم الأدباء ٢٦/١٥
(٥) طبقات الشافعية ٢/٤ (٦) الصداقة والصديق ٥

لهذا كان الذهبي أقرب منهما إلى العوالب في قوله إن أبا حيان توفي سنة ٤٠٠ هـ^(١). ويظهر أن الأستاذ آدم متز أخذ برأيه ، أو استدل من كتابة أبي حيان على أنه كان حياً سنة ٤٠٠ فقال إنه توفي حوالي سنة ٤٠٠ هـ^(٢).

أما القزويني فقد ذهب إلى أنه توفي سنة ٤١٤ هـ^(٣) ، وهذا يتفق مع ما ذكره المؤرخ الشيرازي أبو العباس أحمد زركوب ، فهو يذكر قبل روايته عن أبيه التي أسلفناها رواية أصح منها ، هي أن الشيخ أبا الحسن بن أحمد شيخ مشايخ عصره رأى أبا حيان في منامه ، فسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي على رغبتي . وفي اليوم التالي طلب من أصحابه أن يحملوه إلى شيراز ، فزار قبر أبي حيان وصلى عليه ، وأمر بوضع لوح على قبره مكتوب عليه : هذا قبر أبي حيان التوحيدى توفي سنة ٤١٤ هـ^(٤).

وإذا فقد كان أبو حيان على قيد الحياة سنة ٤٠٠ هـ والراجح أنه قد عاش بعدها إلى ٤١٤ هـ كما ذكر القزويني والمؤرخ الشيرازي الشهير زركوب .

أصله :

رأينا المؤرخين قد اختلفوا في زمن ميلاده ، واختلفوا في سنوات وفاته .

وهم قد اختلفوا اختلافاً يَبْسُناً في جنسيته .

فهو عند ياقوت شيرازي الأصل ، وقيل نيسابوري ، وقال بعض الفضلاء إنه واسطى ... قدم ببنداد فأقام بها مدة ، ومضى إلى الرضى^(٥) ...

(١) ميزان الاعتدال ٣ / ٣٥٥

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع . آدم متز ٤١٦

(٣) مقدمة الهوامل والشوامل ح

(٤) شيرازنامه ١٠٨ (ترجم هذه الفقرة صديقى الدكتور حسين الهمدانى والدكتور محمد

هنداوى) (٥) معجم الأدباء ١٥ / ٥

والذى نفهمه من هذا أنه فارسي الأصل صراحة .
ثم يعمود ياقوت فيذكر أنه عمدة لبني ساسان^(١) ، وهذا يؤكد نسبته إلى
فارس في رأى ياقوت . ونقل السيوطي عن ياقوت أنه شيرازي أو نيسابوري^(٢)
ويظهر أن السندوبى قد اعتمد على هذا الرأى^(٣) ، ثم اعتمد عليهما معاً الدكتور
زكى مبارك ، فجزم بأنه فارسي^(٤) .

أما الأستاذ محمد كرد طى فقد ذهب إلى أنه عربى ، مستدلاً بأنه لم يكن
يعرف الفارسية^(٥) .

ولكن الأدلة على عريته أقوى من الأخذ بما ذكره ياقوت .

١ — فليس في مؤلفات أبى حيان ما يشير إلى فارسيته من قرب أو من
بعد ، ولو أنه كان يمت إلى فارس بصلة النسب لباهى بذلك في عصر كانت
الدولة فيه للفرس ، وكانت صلته بأمرائهم وحكامهم في القرن الرابع أملة وهدفه .

٢ — وإذا ما نذكرنا كنيته واسمه واسم أبيه وجده ولقبه ، رجحنا أنه عربى
صميم ، فهو أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى .

٣ — على أن كتاب شيراز نامه — وهو من أدق المصادر في تاريخ
الفرس — ذكر أن أبا حيان بغدادى ، وفد على شيراز^(٦) .

٤ — ثم إن أبا حيان صرح بأنه يجهل الفارسية ، فلو أنه كان فارسى
الأصل لنشأ على معرفتها ، أو لجدد في تعلمها في السنوات التى قضها بشيراز
وبالعواصم الفارسية .

ودليلنا على أنه كان يجهل الفارسية قوله إن ابن عباد سأله إذ قدم إليه :

- | | |
|------------------------|---------------------------------------|
| (١) معجم الأدباء ٥/١٥ | (٢) بشية الوعاة ٣٤٨ |
| (٣) مقدمة المقابسات ٨ | (٤) النثر الفنى فى القرن الرابع ١٣٣/٢ |
| (٥) أمراء البيان ٤٩٢/٢ | (٦) شيراز نامه ١٠٨ |

أبو من ؟ فقلت : أبو حيان : فقال بلغنى أنك تتأدب . فقلت : تأدب أهل الزمان .
فقال : أبو حيان ينصرف أم لا ينصرف ؟

فقلت : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع هذا تدمر ، وكأنه لم يهجه ،
وأقبل على واحد إلى جانبه ، وقال له بالفارسية كسفها على ما قيل لي ^(١) .
وهذا نص صريح في أنه لم يفهم السفه الذى قاله ابن عباد ، وأنه ترجم له
فيما بعد .

وله كلمة أخرى تدل على جهله بالفارسية ، فهو يروى أن أنوشروان قال
في علم النجوم : « صوابه شبيه بالصدس ، وخطؤه شديد على النفس »
ويُعقب على ذلك بقوله : شكذا تر ترجم ، وهو كما ترى ^(٢) .

ويقول في شرح كلمة آيين : إنها فارسية ، يراد بها السيرة والصورة والرى .
والرسم . والعرب لا تعرفها ، وإنما أقول ما سمعته أذن ، ووعاء صدرى ^(٣) .

٥ — وليس لنا أن نفعل تمصبه للعرب ، وردده على الشعوبية . فقد مدح
العرب في جاهليتها وإسلامها ، وأثنى على أخلاقها وطبايعها وبلغتها ، وعجب
أشد العجب من التجسيماتى إذ سب العرب في كتابه ، وتناول أعراضهم ،
وحط من قدرهم . ورد على تهجمه بمثله ، فتنقص الفرس ، وسفهمهم ، ونال
منهم ^(٤) .

مرفقة :

لم يتحدث عن حياته وأعماله إلا عرضاً ، كذلك لم يتعرض مؤرخوه
لما كان يمارس من عمل يتكسب به .

(٢) المقابسات ١٢٣
(٤) المقابسات ١ / ٧٠ — ٩٦

(١) معجم الأدباء ٢٨ / ١٥
(٣) البصائر والذخائر ٨٧

غير أننا نستنبط من بعض كلامه أنه كان يمارس الوراقاة والنسخ ببغداد قبل أن يرحل إلى ابن عباد . ونستنبط أنه كان جميل الخط ، دقيق النقل ، خبيراً بالتصحيح والتحريف . ونعلم من كلامه أيضاً أنه كان قد مل حرفة النسخ ومل ذكرها ، وود أعظم الود ألا يعود إليها . يذكر في كتابه مثالب الوزيرين أن صاحب بن عباد كلفه أن ينسخ له كتاباً فقبل على مضض ، وقال لبعض الناس في دار الصاحب : إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب ، وزاجت منتجماً هذا الزبيع لأتخلص من حرفة الشوم^(١) .

وذكر هو في حديث له « لقد استولى على الحُرُوف (الحرمان) وتمكن منى نسكد الزمان إلى الحد الذي لا أستزق مع صحة نقلي ، وتقييد خطي ، وتزويق نسخي ، وسلامته من التصحيف والتحريف ، بمثل ما يستزق البليد ... وقصدت ابن عباد بأمل فسيح وصدر رحيب ، فقدم إلى رسائله في ثلاثين مجلدة على أن أنسخها له »^(٢) .

ويذكر أنه نسخ كتاباً لزيد بن رفاعه ، وأن ابن سمدان سأل عن ذلك^(٣) . ويذكر أن ابن سمدان استكتبه كتاب الحيوان للجاحظ ، لأنه علم عنائه به ، وتوفره على تصحيحه^(٤) .

لكنه قد ولي عملاً في البيمارستان من قبل صدقه أبي الوفاء المهندس . ذكر ابن سمدان له أنه سأل عنه شيخه أبا الوفاء ، فعلم أنه يراعى أمر البيمارستان من جهته . وقال له : أنا أربأبك عن ذلك ، ولكني أعرضك لشيء أنبه من هذا وأجدي . ولذلك فقد تآقت نفسى إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولا تعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تتردد في نفسى على مر الزمان^(٥) .

(١) معجم الأدباء ٢٨/١٥ (٢) المعجم ١٣/١٥ (٣) الإمتاع والمؤانسة ٤/٢

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٥/١ (٥) الإمتاع والمؤانسة ١٩/١

ثقافته

كان القرن الرابع عصر النضج الثقافي والعلمي ، وكان أبو حيان مكتبة جامعة لأكثر هذه الثقافة ، فهو عالم واسع المعرفة ، متنوع الثقافة ، خبير باللغة والنحو والأدب والكلام والتصوف والفقه والفلسفة ، وربما لم يند عنه إلا الطب والكيمياء والرياضة .

يذكر ياقوت أن التوحيدى « شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، وعمدة لبني ساسان . . . فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة ومُمكنة » كثيرا لتحصيل العلوم في كل فن حفظه ، واسع الذراية والرواية «^(١) .

بناييع ثقافته :

من أين استقى أبو حيان كل معارفه هذه ؟ وكيف استطاع أن يجمع أفانين من المعرفة ، ويزاوج بينها ؟

١ - لقد استقهاها أولا من الكتب التي قرأها ونسخها ، وكان كما قدمنا كثيرا ما ينسخ في إجابة وإتقان ، واستقهاها من حرفة الوراقة ، ولا شك أنها كانت تصله بالكتب ، وكانت تتيح له أن يقرأها على تمهل ، وينقل منها ما يشاء ، ويردد النظر فيها كما يهوى . وأغلب الظن أن حرفة الوراقة يسرت له أن يطلع على النادر النافع من الكتب .

وإذا كان الجاحظ قد اشتهر بأنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ، ويجلس فيها للنظر والقراءة ، فإن أبا حيان لم يضطر إلى ذلك ، لأنه وراق .

٢ — على أن أبا حيان لم يكن له عمل آخر يشغله عن البحث والدرس ومجالسة العلماء ، والتردد على مجامعهم ، والأخذ عن المشهورين منهم .

ويطول بنا القول إذا أحصيناهم ، لأنهم كثير .

أهم ألوان ثقافته

الفلسفة :

درس الفلسفة على أبي زكريا يحيى بن عدى المنطقى سنة ٣٦١ هـ ^(١) . وقرأ فى بغداد على أبي سليمان المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني) كتاب النفس لأرسطو سنة ٣٧١ هـ ^(٢) ، وسمعه منه آراء فى الأدب ، وفيما وراء الطبيعة . وكان أبو سليمان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق ، وكان مجلسه حافلا بالعلماء والحكماء ، وكان واسع الاطلاع على فلسفة اليونان .

وكثيرا ما ينقل عنه ، ويصدر ما ينقله بقوله : سألت أبا سليمان ، أو سمعت من أبي سليمان ، أو أملى علينا أبو سليمان ، أو قيل لأبي سليمان ^(٣) ، أو أملى أبو سليمان على جماعة كنت أحدهم ^(٤) . ويظهر أن أبا سليمان هذا كان يدرّب تلاميذه على التفكير المستقل ، فإذا ما أنص منهم المعجز أجابهم .

تحدث أبو حيان أنه خرج مع أبي سليمان إلى صحراء بغداد فى يوم من أيام الربيع قصدا للفرج والمؤانسة ، ومعهم جماعة .

(١) المقابسات ١٥٦

(٢) المقابسات ٢٤٦

(٣) المقابسات ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠

(٤) المقابسات ٢٨٦

فلما تنفس الصبح غنى صبي غناء حلوا . فقال أبو حيان لصاحب ذكي من أصحابه : لو كان لهذا الصبي من يخرج به ويملمه ، فإنه عجيب الطبع . فقال أبو سليمان : لم احتاج الطبيعة إلى الصناعة ؟ وقد علمنا أن الصناعة تحاكي الطبيعة وتروم اللحاق بها فقلنا له : ما ندرى ، وإنها لمسألة . فقال : فذكروا . فقلنا له : إنا قد عجزنا ، ولو مننت بالبيان كان ذلك محسوبا في بيض أبابيك ، فأجاب^(١) . . .

وتتلمذ لآخرين ذكرهم في المقابسات ، منهم أبو محمد المقدسي المروزي ، وأبو الفتح النوشجاني ، وأبو زكريا الصيمري ، وأبو بكر القومسي ، المتفلسف كاتب نصر الدولة ، وعيسى بن علي ، وابن مسكويه ، وكتابه (الهوامل والشوامل) إن هو إلا أسئلة سأل ابن مسكويه عنها ، وإجابات أرسلها إليه ابن مسكويه .

وفيهم أبو الحسن العامري وأبو النفيس الرياضي ، وعلي بن عيسى الرمانى ، وقد أثنى عليه في كتابه (تقرير الجاحظ) بقوله : لم ير مثله قط بلاتقية ولا تحاش ، ولا اشمئزاز ولا استيحاش ، علما بالنحو ، وغزارة في الكلام ، وبصرا بالمقالات ، واستخراجا للوحي ، وإيضاحا للمشاكل ، مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهاة وعفاة ونظافة .

وحلل شخصية كثير من العلماء الذين عرفهم .

منهم ابن زرعة وابن الخمار وابن السمع والقومسي ومسكويه وعيسى ابن علي ، ونظيف ، ويحيى بن عدى ، وبين مذاهبهم في النفس وبقائها أو فناها ورأيهم في النجوم^(٢) .

وكان على صلة بنقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية في القرن الرابع ، كآبي بشر متى بن يونس القُسنائي ، وآب زكريا يحيى بن عدى المنطقي^(١) ، وآبى على إسحاق بن زُرعة^(٢) ، وآبى الخير ابن الحسن ابن الخمار^(٣) .

كما كان وثيق الصلة بمؤلفات المناطقة والفلاسفة ، فكثيرا ما نقل عنهم ، وذكر أسماءهم في المقابسات والإمتاع والمؤانسة . وكثيرا ما ذكر بعض مراجعهم ، وذكر الكتب التي دافعت عن المنطق والفلسفة ، وبيّنت حاجة الفقه والدين إليها ، فذكر أن شيوخ العلم وأرباب الحكمة وفرسان الأدب فرغوا من جميع ذلك في كتب مشهورة مثل كتاب أقسام العلوم ، وكتاب اقتصاص الفضائل ، وكتاب تسهيل سبيل المعارف . فنظر في هذه الكتب عرف مغازى الحكماء ومرامى العلماء^(٤) .

وقال في مقدمة المقابسات :

أشرت على بتصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك ، وأضفت أشياء أخرى تجري معها ، عن مشايخ العصر الذى أدركته ، والزمان الذى لحقهم فيه^(٥) .

(١) نصرانى منطقي أخذ عن الفارابى وبشر بن متى وله مؤلفات عدة . توفى ٣٦٤ وكان رئيس اليعاقبة .

(٢) عالم نصرانى من علماء بغداد برز في المنطق والفلسفة وتل عدة مصنفات إلى العربية توفى سنة ٣٩٨

(٣) نصرانى طبيب فيلسوف نقل كثيرا من كتب السريانية إلى العربية

(٤) العلوم ٢٠٢ ملحقة بالصدقة والصديق

(٥) المقابسات ١١٧

الفقه والحديث :

ذكر السبكي^(١) أنه درس الفقه الشافعي على القاضي أبي حامد
الروروزي^(٢)، وسمع الحديث من أبي بكر الشاشي^(٣) وأبي سعيد السيراني^(٤)
وجعفر الخلدی :

وهو في رأي السبكي أحد المحدثين في عصره ، روى عنه كثيرون^(٥) وذكره
الإسنوي في طبقات الشافعية^(٦) .

لكننا لا نعرف لأبي حيان مذهبا خاصا في الفقه ، بل لا نعرف له فُتُيا
خاصة إلا في مسألتين ذكرهما السبكي^(٧) ، إحداها غير صحيحة كما سنرى .

الأولى أن داء الكلاب الذي يمتري الكلاب كثيرا ، قد يمتري الجمل ، فإذا
كلب الجمل ينحر ولم يؤكل لحمه . والسبكي يرد على هذا بما يؤكد أن أبا حيان
أعلم منه ، فيقول : وما ذكره من عدم أكل اللحم ظاهر إن كانت الأطباء
صرحت بأنه مؤذ . ويرد على النحر بقوله : وأما النحر انير ما كلة ففيه وقفة ،
والذي ينبغي عموم القتل كقتل سائر المضرات ، لا خصوص النحر .

وأغلب الظن أن السبكي قرأ كلمة (بَنَحِر) (نُحِر) فتغير المعنى ، وتغير الرأي ،
وكان تمليقه هذا .

(١) طبقات الشافعية ٢/٤

(٢) إمام من أئمة الدين ، واسع الاطلاع ، عالم بالأدب . توفي سنة ٣٦٢ هـ

(٣) فقيه محدث أصولي أديب توفي سنة ٣٦٦

(٤) نحوي أديب متكلم توفي سنة ٣٦٨

(٥) راجع طبقات الشافعية ٢/٤

(٦) بنية الرواة ٣٤٨ (٧) طبقات الشافعية ٢/٤

والصواب أن أبا حيان قال إن الجمل إذا كلبَ بَحْرٍ . أى تن لحمه فلم يؤكل^(١) .

المسألة الثانية التى ذكرها السبكي أن الرافعى نقل عن أبي حيان الربا فى الزعفران ، وهو عنده مسائل كثيرة عن القاضى أبى حامد المروروذى ومنها مسألة الزعفران .

على أننا لانستطيع اليقين بأن رأى أبى حيان فى هاتين المسألتين هو رأيه واجتهاده ، وأهو رأى القاضى أبى حامد ، أو غيره من العلماء الذين خالطهم أبوحيان ونقل عنهم .

اللغة والنحو :

تنبىء كتبه عن علم واسع باللغة ، من حيث مفرداتها ، والخبرة بدقة استعمالها ، والمهارة فى تركيبها . وقد استمدّها من مشافهة الأعراب فى البادية^(٢) ، ومن العلماء الذين درس عليهم . وأعظمهم قدرا فى نظره أبو سعيد السيرافى ، فقد قرأ عليه شرحه لكتاب سيبويه ، وهو معجب بأبى سعيد إعجابا عظيما ، فهو يقول عنه إنه الإمام^(٣) ، ويقول إنه شيخ الدهر ، وقريم العصر ، المديم المثل المفقود المشكّل^(٤) .

من ذلك قوله فى كتابه (تقرّظ الجاحظ) : أبو سعيد السيرافى شيخ الشيوخ ، وإمام الأئمة ، معرفةً بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة . أفقّ فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عُثر منه على زلة . وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثة آلاف ورقة بخطه فما جازاه

(٢) البصائر والذخائر ٣/١٢٠

(٤) معجم الأدباء ٨/١٥٢

(١) الإمتاع والمؤاساة ١/١٦٥

(٣) الإمتاع والمؤاساة ١٢/٥

«فيه أحد ، ولا سبقه إلى تمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية .
صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله»^(١) .

وقد سأله أبو سليمان المنطقي عن كلمة طبيعية ، أهي فعيلة بمعنى مفعوله أم بمعنى
فاعلة ؟ فذكره أن يرتجل الجواب ، واستمعه حتى يسأل شيخه أبا سعيد السيرافي
نغدا ، لأنه عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض . فوافقه أبو سليمان ،
وطالبه بأن يتلطف في تحصيل ما عند أبي سعيد في هذه المسألة^(٢)

ودرس على علي بن عيسى الرُّماني ، وعلى يونس ، وقرأ ما كتبه نحاته عصره ،
وعرف آراءهم .

لكنه لم يكن من علماء النحوي أصحاب الآراء والمذاهب ، وإن عدّه السيوطي
من النحاة ، وترجم له .

وركتبه ملأى بالمسائل اللغوية التي كان يذكرها حفظا ورواية .

حدث أبو حيان قال : قال صاحب بن عباد يوما : فَعَلٌ وأفعال قليل ،
وزعم النحويون أنه ما جاء إلا : زَنَدَ وأزناد ، وفرخ وأفراخ ، وفرد وأفراد .
فقلت له أنا أحفظ ثلاثين حرفا كلها فَعَلٌ وأفعال . فقال : هات يا مُدَّعِي .
فسردت الحروف ، ودَّكَّلتُ على مواضعها من الكتب .

ثم قلت : ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحسك إلا بعد التبصر والسماع
الواسع ، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة والقياس مُطردا . وهذا
كقوله : فعيل على عشرة أوجه ، وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين
وجهها ، وما انتهيت في التتبع إلى أقصاه .

فقال : خروجا من دعواك في فَعْل يدلنا على قيامك في فَعِيل ، ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك^(١) ، ولا نَهَبُ آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا ، وتبسطك في حضرتنا^(٢) .

وقد خطأ الفقهاء في قولهم عَنِ بَيْنِ المُنَّة ، وذهب إلى أن الصواب هو بَيْنِ التَّعْنِين^(٣) .

والذي في اللسان بَيْنِ المَنَانَة^(٤) ، وفي القاموس المحيط بَيْنِ المَنَانَة والتَّعْنِين^(٥) .

وليس فيهما (المُنَّة) ، كما أن اللسان ليس فيه (التَّعْنِين) .

ومؤلفاته دالة على تبجره في اللغة ، وإسماها له ، يبربها في ترادف أوفى تفرقة دقيقة بين المفردات :

لكنه يذكر في شرحه للمثل (ليس له أصل ولا فصل) أن الأصل الوالد ، والفصل الولد^(٦) .

وهذا يخالف ما في لسان العرب وهو « قولهم لا أصل له ولا فصل » الأصل الحسب والفصل اللسان^(٧) .

ويخالف ما في أساس البلاغة « وفلان لا أصل له ولا فصل » أي لا نسب له ولا لسان^(٨) .

في نفسه

وهذا مثال يدل على علمه بالمفردات وحسن تصرفه فيها :

- | | |
|----------------------------|-------------------------|
| (١) اقتصاصك : ما قصه علينا | (٢) معجم الأدياء ٢٧/١٥ |
| (٣) البصائر والذخائر ٢٣ | (٤) لسان العرب ١٧/١٦٤ |
| (٥) القاموس المحيط ٢٤٩/٤ | (٦) البصائر والذخائر ٢٠ |
| (٧) لسان العرب ١٣/١٧ | (٨) أساس البلاغة ١٤/١ |

قال في ختام رسالة الصداقة والصديق : قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاء والخلاف والهجر والصلة والعتب والرضا والمذق والإخلاص والرياء والنفاق والحيلة والخداع والاستقامة والالتواء والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله آتم مما هو عليه ، وأحرى إلى الغاية في ضم الشكل إلى شكله ...

ولكن العذر قد تقدم ... وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة ، لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامِل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سَكَن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو وليّ أو خليف . كما لا يخلو أيضاً من عدو أو كاشح أو مداح أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مُزِيل أو مُضِل أو مُغِيل^(١) .

علم الكلام :

في أول الأمر سمي النظر في العقائد والأحكام الدينية فقها .. ثم أطلق الفقه الأكبر على الاعتقادات ، والفقه على المعاملات .

ثم اختصت العقائد باسم علم التوحيد أو علم الصفات ، نسبة للبحث إلى أشرف أجزائه ، أو علم الكلام^(٢) .

(١) الصداقة والصديق ٧٩

(٢) والسبب في التسمية بعلم الكلام يرجع إلى واحد من عدة أسباب .

(أ) أن أكبر مسألة قام الخلاف بسببها هي كلام الله .

(ب) أنه بقوة أدلته صار كأنه هو الكلام ، دون ما سواه .

(ج) أنه يورث قدرة على الكلام في المسائل الشرعية ، كالمنطق في المسائل الفلسفية .

(د) أنه كثرفيه الكلام مع المخالفين كثرة لم تكن في غيره .

(هـ) أن المتكلمين أرادوا مقابلة الفلاسفة في تسميتهم علما من علومهم بالمنطق .

والمناطق والكلام مترادفان .

ذكر ياقوت أن أبا حيان محقق الكلام ، ومتكلم المحققين ^(١) . ووصفه السبكي بأنه متكلم صوفي ^(٢) . وقال ابن حجر ^(٣) إنه سمي التوحيدي ، نسبة إلى التوحيد ، إذا كان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد .
لكن الذى نعلمه من كتبه أنه لم يكن من علماء الكلام الذين استنفذوا الكلام جهدهم ، ولو أن آراءهم ، وطغى على ثقافتهم وتفسيرهم .
فهو يميل المتكلمين ، وينتقص طريقتهم فى البحث والاستدلال ، ويفضل الفلسفة عليها .

يدل على ذلك أنه سأل أبا سليمان المنطقى الفيلسوف عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة ، فأجاب به بأن طريقة الفلاسفة أصح وأقوم ، وسجل هو إجابة أبى سليمان ، ولم يناقشه فيها ، ولم يعقب عليها . قال أبو سليمان : « طريقة المتكلمين مؤسسة على مقابلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشيء بالشيء . »
لما بشهادة من العقل مدخولة ، ولما بنى شهادة منه البتة ، والاعتماد على الجدل ، وما يسبق إلى الحس ، أو يحكم به العيان ، أو على ما يستلزم به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل ... وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع وإسكات الخصم بما اتفق ، وإتمام القول الذى لا محصل فيه ولا مرجوع له ، مع بوادى لا تليق بالعلم ، ومع سوء أدب كثير ، نعم ومع قلة تأله ، وسوء ديانة ، وفساد دخلة ، ورفض الورع بجملته .

والفلسفة — أدام الله توفيقك — محدودة بمحدود ستة ، كلها تدل على أنها بحث عن جيبى ما فى العالم ، مما ظهر للعين ، وبطن للعقل ، وما ركب بينهما ، ومال إلى أحد طرفيهما ... من غير هوى يمال به على العقل ، ولا إلف .

يفتقر معه إلى جناية التقليد ، مع إحكام الفعل الاختياري ، وترتيب الفعل الطبيعي ، ومع أخلاق إلهية ، واختبارات علوية ، وسياسات عقلية .

ثم قال : وكان شيخنا يحيى بن عدى يقول : إني لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس : نحن المتكلمون ، ونحن أرباب الكلام .. كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا أهل الكلام ، أما يتكلم يا قوم الفقيه ، والنحوى والطبيب والمهندس والمنطقي والمنجم والطبيعى والإلهى والحديثى والصوفى ؟ (١) ...

ويدل على زرايته بطريقة المتكلمين ، وحملته على علم الكلام ، أنه قال فى تعقيبه على عجب أحد المعتزلة من أن أهل الجنة لا يملون الأكل والشرب والنكاح : « والكلام كله جدل ودفاع ، وحيلة وإيهام ، وتشبيه وتمويه ، ومخاطلة وتورية ، وقشر بلا لب ، وأرض بلا ريع ، وطريق بلا منار ، وورق بلا ثمر .. المبتدئ فيه سفیه ، والمتوسط شاك ، والحاذق متهم . وفى الجملة آفته عظيمة ، وفائدته قليلة » (٢) .

ولم يكن السبب فى ذلك جهله بالفلسفة التى استعان بها علماء الكلام فى تفنيد آراء خصومهم ، وتميز آرائهم ، وإنما كان السبب أنه — على علمه بالفلسفة — رأى أن تظل مسائلها بعيدة عن مسائل الدين ، لأن الدين وحى والفلسفة تفكير بشرى « الفلسفة حق ، لكنها ليست من الشريعة فى شيء ، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شيء . وصاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه . وأحدهما مخصوص بالوحى ، والآخر مخصوص ببعثه ، وهذا يقول : أَمِرْتُ وَعُلِّمْتُ وَقِيلَ لِي وَمَا أَقُولُ مِنْ تَلَاءِ نَفْسِي ،

وهذا يقول : نظرت واستحسنيت واستقبحت ... » (١)

هكذا روى أبو حيان عن أستاذه أبي سليمان، ولم يعلق عليه . ثم قال عن رسائل إخوان الصفا : « وحملت جملة منها إلى أبي سليمان المنطقي وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياماً ، واختبرها طويلاً ، ثم ردها عليّ » وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونصّبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنّوا وما أطربوا ، ونسجوا ففعلوا ... ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطيع ... ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة في الشريعة ، وأن يضموا الشريعة للفلسفة . وهذا مرام دونه كحدّ (مشقات) . وقد توفّر على هذا قبيل هؤلاء قوم كانوا أحد أنبياء ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أخطاراً ... فلم يتم لهم ما أرادوه ، وحصلوا على كوثات قبيحة ، واطيخات فاضحة ، وألقاب موحشة ، وعواقب مخزية ، وأوزار مُثْقَلَة » (٢) .

ولهذا لم يعجبه إخوان الصفاء ، ولم يثن عليهم في تعريفه بهم حينما سأله عنهم ابن سميّان (٣) .

وإذاً فلسنا مع الدكتور زكي مبارك في ذهابه إلى أن أبا حيان كان من إخوان الصفا ، لكنهم كان يخفى ذلك . قال :

« وينبغي أن نشير إلى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا ، ولكنه كان يتستر اتقاء لسخط الجمهور ، وكانت طريقته في تأييدهم أن ينطق الأشخاص بمبارات مربية ، كقوله : « الشريعة تطب المرضى والفلسفة طب الأصحاء والأنبياء يطبّون المرضى حتى لا يزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالمافية

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٦/٢

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٨/٢

(٣) المرجع السابق ٤

فقط ، أما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلاً ... »^(١) .

ولهذا لم يؤثر عنه رأى مستقل خاص في علم الكلام يصح أن ينسب إليه ، كما أثر عن الجاحظ مثلاً . وسنعرف أنه كان عظيم الإعجاب بالجاحظ ، وأنه كان يقفو آثاره ويحاكيه . فللجاحظ^(٢) بعض آراء خاصة ، وله فرقة اسمها الجاحظية .

فن آرائه الخاصة أن المارف كلها ضرورية طباع ، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة ، وتحصل أفعاله منه طباعاً .

ونقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الأعراض ، فقال : إذا انتفى السهو عن الفاعل وكان عالماً بما يفعله فهو المرید على التحقيق . وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه .

وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام كما قال الطليعمون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالا مخصوصة بها .

وقال إن أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً ، بل يسرون إلى طبيعة النار .

وقال إن الإنسان قادر على معرفة الخالق بعقله ، وعلى إدراك الحاجة إلى الوحي المنزل على الأنبياء الخ^(٣) .

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع ٢ / ١٤٣

(٢) تتلمذ الجاحظ على النظام المتوفى سنة ٢٢١ أو ٢٣١ م .

(٣) الملل والنحل لاشهر ستانى ١ / ٧١

الشعر :

لم يكن أبو حيان شاعراً ، ولا شبه شاعر .
وليس يقدح في هذا الحكم أن له بضعة أبيات من الشعر^(١) ، لأن هذا
القدر الضئيل لا يدل على شاعريته ، ولا على ممارسته للشعر ، تسلكه في عداد
الشعراء المقلين .

وهو نفسه يعترف بذلك في قوله لابن سمدان إذ سأله عن أصحابه الشعراء ،
وحكمه عليهم ، ورأيه فيهم : « لست من الشعر والشعراء في شيء ، وأكره
أن أخطو على دَخْض — مزلة — ، لا أحسنى غير مَحْض^(٢) » فلما ألح
عليه ابن سمدان ، وصفهم له وصف الخبير البصير الحاذق .

على أنه ملأ بمض كتبه بشعر مختار جيد ، كما في الصداقة والصديق ،
ونقل عن ابن المعتز وأثنى عليه^(٣) .

(١) الصداقة والصديق ١٧١

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٣٤/١

(٣) الصداقة والصديق ٢٠٦

صلاته بوزراء عصره

عرفنا في الحياة العلمية والأدبية أن ملوك مصر وولاته وأمرائه كانوا يتنافسون في تقريب العلماء والأدباء ، ويحاولون بمن في مُلُكهم من هؤلاء .
لذلك كان من دأب رجال العلم والأدب أن يتصلوا بأمر أو بعدة أمراء ، لينالوا من رعايتهم ما يكفل لهم أسباب العيش ، ويمينهم على التفرغ للعلم أو للفن .

ولقد بلغ بعضهم بعلمه أو أدبه مرتبة عالية في الدولة ، كابن العميد وابن عباد وأحمد بن يوسف وابن مسكويه . فكان طبيعيا أن يسلك أبو حيان ما سلكه هؤلاء ، وهو عالم أديب ذو مواهب ، وأغلب الظن أنه كان يرى نفسه أغزر منهم علما ، وأخصب أدبا ، وأنصم بيانا . على أنه كان قد برم بالوراقة والنسخ، وتطلع إلى مال وافر ، أو منصب رفيع .

وقد فُكّر فيمن يتصل بهم ، فرأى أن تكون صلته بالوزراء الكبار الذين يشتهرون بعلمهم إلى الأدب والأدباء ، والذين لهم يد في تنشيط الحركة العلمية .

صلته بابن العميد

اتصل أولا بابن العميد .

فمن ابن العميد الذي اتصل به أبو حيان ؟

ذكر ياقوت أنه أبو الفضل بن العميد^(١) ، وأن أبا حيان ألف في طلبه

وفي ثلب ابن عباد كتابه (مثالب الوزيرين) أو (أخلاق الوزيرين)^(١) .
ثم نقل عن ياقوت من جاءوا بعده كابن خلكان^(٢) والسسيوطي^(٣)
والسندوبى^(٤) .

ولسكن في كتب أبي حيان ، وفي الصفحات التي نقلها ياقوت من كتاب
مثالب الوزيرين أمرا يسترعى النظر ، ويجعلنا نرجح ترجيحاً يقرب من اليقين أن
المقصود ليس هو ابن العميد المشهور .

١ — ذلك أنه يصرح بقوله في ذم ابن عباد بكلمة (الصاحب) أو (ابن عباد)
أما ابن العميد فلم أجد تصريحاً بأنه أبو الفضل بن العميد الذي كان يسمى الأستاذ
والرئيس وذا الرياستين .

٢ — على حين أنه يصرح بكسنيته في معارض أخرى لا صلة لها بالثلب ،
كقوله : « أبو عبيد القاسم بن سلام ، ولا تقل سلام ، فقد كان بعض من
حبب أبا الفضل بن العميد إلى مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة يقول
ذلك ، فعابه البغداديون^(٥) » .

٣ — ويصفه مرة أخرى بالرئيس مع كسنيته في قوله : « هذا من رسالة
لبعض من انتجع بها الرئيس أبا الفضل بن العميد »^(٦) .

٤ — ولو أن أبا الفضل ابن العميد كان هو المقصود بالذم مع ابن عباد
لأصابه شواظ من قلم أبي حيان كلما ذكره ، لكنه لم يطعمه مرة واحدة كطعماته
لابن عباد ، بل كان رفيقاً به ، إذ ذكر ابنه أبا الفتح ، وقال إنه لو طال عمره

(٢) وفيات الأعيان ٤٧ / ٢

(٤) مقدمة المقابسات ١٣

(٦) المقابسات ١٦٣

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٢٦

(٣) بنية الوعاة ٣٤٨

(٥) البصائر والذخائر ٣٤

لـكان أـكتب من أبيه وأشعر^(١) . وقال عنه مرة : نضر الله وجهه^(٢) .

٥ - والصورة العامة التي صور بها ابن العميد تخالف حياة ابن العميد ، وتغاير ما ذكره عنه المؤرخون . فهو في رأيه بخيل ، ماجن ، صاحب لهو وصيد ، حسود حقود ظالم ، كما سنتبين من بعض الفقرات في ذمه .

ولم يكن أبو الفضل ابن العميد على شيء من ذلك .

فقد كان كريما ، يقصده الشعراء بفارس ، ومنهم أبو الطيب المتنبي .

وكان عظيم القدر مهيأ ، مدحه الصاحب بن عباد ، وكتب له ، ومدحه ابن مسكويه وخدمه^(٣) .

وكان الأدباء يحلون له عطايا وأدبه ، فهو في رأى الثعالبي أو أحد العصر في الكتابة ، يدعى الجاحظ الأخير ، ويضرب به المثل في البلاغة ، وينتهى إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة ... وكان يقال بدأت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد^(٤) .

٦ - ثم إن العداوة التي تحدث عنها أبو حيان في كتابه مثالب الوزيرين ، لم تكن بين الصاحب وأبي الفضل بن العميد ، إذ أن الصاحب كان قد كتب لأبي الفضل أيام وزارته ، وكان محمدا له ، ولم يكن يغار من ذكره والثناء عليه ، كما قد يتبادر إلى الذهن من كلام أبي حيان .

وإذا فلا مندوحة من أن يكون المقصود شخصا آخر .

(١) الإمتاع والمؤاساة ١/٦٦

(٢) الإمتاع والمؤاساة ٢/٣

(٣) يتيمة الدهر ٣/١٣٩ — ١٤٣

(٤) اليتيمة ٣/١٣٧

فمنه ذلك الذي قصده أبو حيان ؟

المقصود هو أبو الفتح ابن العميد ، وهو ابن أبي الفضل ابن العميد المعروف بالأستاذ والرئيس وذى الرياستين .
ولنا على هذا رأى أدلة شتى :

١ — صرح بهذا أبو حيان فى قوله إن أبا الوفاء المهندس قال له : « إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرى إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (وثلاثمائة) بعد فوت مأمولك من ذى السكفائتين — نصر الله وجهه — عابسا على ابن عباد ، منيظا منه ، مقروح السكبد ، لما نالك من الحرمان المر ، والصمد القبيح ، واللقاء السكريد ، والجفاء الفاحش ^(١) ... »

وإذا فإن العميد الذي قصده أبو حيان ، وهجاء ، هو الابن لا الأب ، وقد كان الأب يلقب بالرئيس وبالأستاذ وبذى الرياستين ، أما الابن فكان يلقب بذى السكفائتين ^(٢) . وقد وزر الأول لركن الدولة ابن بويه ، وتوفى سنة ٣٦٠ ، فخلفه ابنه فى الوزارة لركن الدولة ، ثم لمؤيد الدولة ، وتوفى سنة ٣٦٦ هـ .

٢ — وهذا نص آخر يزيد الأمر وضوحا ، ويؤكد أن المقصود هو الابن لا الأب .

قال أبو حيان : فأما ابن العميد فإنى سمعت ابن الجبل يقول عن ابن ثوبة : أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، وظن أنه إن تبعه لحقه ، فوقع بعيدا من الجاحظ . ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/١ (٢) معجم الأدباء ١٤ / ١٩١

مدبّر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ، ولا تجتمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والمادة والعمر والفراغ ...

وأما ابنه ذو الكفائتين فلو عاش كان أبلغ من أبيه ، كما كان أشعر منه . ولقد تشبهه بالجاحظ فافتضح في مكاتبتة لإخوانه ، ومجانبته في كلامه ، ومسائله لعلمه التي دلتنا على سرقة وغارته وسوء تأتبه في تستره وتغطيعه . ومن شاء حَقَّق نفسه . وكان مع هذا أشد الناس ادعاء لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريية ، وهو نَزَرُ المعاني ، شديد الكلف باللفظ ، وكان أحسد الناس لمن خط بالقلَم ، أو بَلَّغَ باللسان ، أو قَلَجَ في المناظرة ... ولقد لقي الناس منه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة . وقد ذكرت ذلك في الرسالة ^(١) ...

فهو في هذا النص يحمل على أبي الفتح ابن العميد ، ويعقب على حملته بأنه ذكر ذلك في الرسالة . والمقصود بالرسالة كتاب مثالب الوزيرين : ابن العميد وابن عباد .

٣ — وصرح مرة ثالثة بأنه إنما يثلب أبا الفتح ابن العميد في قوله : « وهذا بالأمس على بن محمد ذو الكفائتين اغتر بشبابه ، ولها عن الحزم والأخذ بما كان أولى به ، وظن أن كفايته تحفظه ، ونسبه يكتفه ... ومشى فمتر ، وراب فخر ... » ^(٢)

وابن العميد الكبير اسمه محمد لاهلي .

٤ — وصرح مرة رابعة بأن المذموم هو ذو الكفائتين في قوله : وقصدت مع أبي زيد المروزي دار أبي الفتح ذي الكفائتين ، فننقنا من

الدخول عليه أشد منع ، وذكر حاجبه أنه يأكل الخبز ، فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب : أجلسنا في التهليل إلى أن يفرغ من الأكل ، فلم يفعل ... »^(١)

٥ — وحين نرجع إلى غير أبي حيان ؛ لتعرف أخلاق أبي الفتح ابن العميد ، ونعود إلى وصف أبي حيان نجد تشابها قويا ، يؤكد أنه هو المقصود لا أبوه .

فهو كما وصفه أبو حيان مفروز ، بخيل ، ماجن ، صاحب لهو وصيد وشراب ، حسود ، ظالم .

وهو كذلك في رأى أبي على مسكويه . وكان أبوه أبو الفضل ابن العميد يغضب من فعله ، ويلومه ، حتى لقد مات برمايه ، متشاعما على آل العميد من فعلاته .

ذكر أبو على مسكويه في بعض كتبه أن أبا الفتح ابن العميد سار مع أبيه ومع القواد لإخاد فتنه « وكان شابا قد خلف أباه بمحضرة ركن الدولة ، وعرف تدير المملكة وسياسة الجند ، فهو بذلك وحده ذهنه وسرعة حركته قد نفق نفاقا شديدا على ركن الدولة . وهو مع ذلك لقله حُسن كنهته ونزق شبابه ، وتهوره في الأمور يقدم على ما لا يقدم عليه أبوه . ويجب أن يسير في خواص الدَّيْلَم ، وهم يعيشون بين يديه ، ويختلط بهم اختلاط من يستميل قلوبهم ، ويخلع عليهم خلعا كثيرة ، ويحمل رؤسائهم وقوادهم على الخيول الفرء بالمراكب الثقيل ، ويريد بجميع ذلك أن يسكِّمواله الرياسة ، حتى لا يأنف أحد منهم من تقبيل الأرض بين يديه ، والمشى قدامه إذا ركب . وكان جميع ذلك

مما لا يؤثره الأستاذ الرئيس ، ولا يرضاه لسيرته . وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يَرُخص فيه لكان هو بنفسه قد سبى إلى (١) ...

وذكر مسكويه أن أبا الفتح ترك أباه في السفر لإخماد فتنة ، وأضاف القواد في الصحراء . وخرج مع جماعة للصيد « فاستشاط أبوه من ذلك ، وساءه أن يجرى مثل هذا ، ولا يستأذن فيه ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من العسكر ، وهو في وجه حرب ، فتم عليه حيلة ، فدعا أكبر حجاجه ووصاه أن يحجب هذه ابنة أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسابرة ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الإنكار سيغضض منه ، وينهى العسكر عن اتباعه على هواه ، فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى إلى عادته ، واتبعه العسكر ، ومالوا معه إلى اللعب والصيد والأكل والشراب ، وكان لا يُنخلهم من الخيلع والإلطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جداً ...

فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك إلى زيادة في مرضه ، حتى هلك بهمدان ، وهو يقول في خلواته : ما يهلك آل العميد ، ولا ينجو آثامهم من الأرض ، إلا هذا الصبي — يعني ابنه — . ويقول في مرضه : ما قتلني إلا جُرْعُ الغيظ التي تجرعتها منه « (٢) .

ونقل ياقوت عن مسكويه أن أبا الفتح كان فيه — مع راحته وفضله في أدب الكتابة وتيقظه وفراسته — نَزَقُ الحداثة ، وسُكْرُ الشباب ، وجراءة القدرة ، فأجرى أمره على ما تقدم من إظهار الزينة الكثيرة ... حتى خرج عن

(١) معجم الأدباء ١٤ / ٢٢٧

(٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢٢٧ — ٢٣٣

حد القصد إلى الإسراف ، فجلب ذلك عليه ضروب الحسد من السلاطين
وأصحاب السيوف والأقلام ...

فأنكر عليه هذا الفعل عضد الدولة ومؤيد الدولة ابنا ركن الدولة ،
وكتابهما ، ثم سائر مشايخ الدولة ^(١) .

وكذلك هو في رأى الوزير أبى سعيد منصور الآبى ، قال :

تولى أبو الفتح ابن العميد الوزارة بعد أبيه ، لركن الدولة ، وسنة إحدى
وعشرون سنة . وكان قد ولد في النعمة الفخمة ، ونشأ فيها ، واعتاد أن يخدمه
الأمراء والقواد ، فكان يركب إلى الصيد وإلى الميدان لضرب الصوألجة ،
فيتبعه أكثر أكار الحضرة ، فيترجلون له ويمشون بين يديه .

ثم يضيف في أكثر أيامه جماعة منهم ، فيخلع عليهم أنواع الطلع النفيسة ،
ويحملهم على الدواب الفارحة بالمرابب الثقيلة ^(٢) .

وكان صاحب قصف وطرب ^(٣) .

وقال أبو حيان :

حدثني أبو الطيب الكيمياءى قال : قلت لأبى الفضل ابن العميد بعد أن
سمم الحاجب النيسابورى ، ودس إلى ابن هند وغيرهم من أهل الكتابة والمروءة
والنعم : لو كففت ، فقد أسرفت . فقال : يا أبا الطيب أنا مضطر . . .
فقلت له : هذا كله بسبب ابنك أبى الفتح ، والله إن أيامه لاتطول ، وإن عيشه
لايصفو ، وإن حاله لا يستقيم ، وله أعداء لا يتخلص منهم ، وقد دل مولده على
ذلك ، وإنك لاتدفع عنه قضاء الله ، وهو لاينى عنك من الله شيئاً ^(٤) .

(١) معجم الأدباء ١٤ / ٢٣٥ (٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢٠٧

(٣) المعجم ١٤ / ٢٠٨ (٤) معجم الأدباء ١٤ / ٢١١ — ٢١٣

والابن هو الذى اشتهر بالمجون لا الأب ، بل إن الأب كان يعجب من مجون ابنه ويستنكره .

حدث أبو الفتح منصور الأصبهاني أن أبا الفتح كتب إلى بعض خاصته بيتين ماجنين^(١) ، وأن أباه وجد الرقعة ، وقراها ، فلما عرف أن ابنه هو الذى نظمهما غضب ، وقال : أمثلُ ولدى يكتب مثل هذا الفحش والفجور ؟ ثم قال : أما والله لولا ولولا . ثم أمسك ، كأنه يشير إلى ماحكم له من سوء العاقبة وقصر العمر^(٢) .

٦ — ولا غرابة في أن يطلق عليه أبو حيان ابن العميد ، لأنه كان أحيانا يطلق عليه (أبو الفتح ذو الكفائتين)^(٣) ، أو (ذو الكفائتين)^(٤) أو (ذو الكفائتين أبو الفتح)^(٥) أو (أبو الفتح)^(٦) . وكان أحيانا يطلق عليه (ابن العميد)^(٧) وهو يريد الابن لا الأب ، تلقبها له باسم جده ، كما لقب أبوه باسم هذا الجد ، خلفته على اللسان ، وتعارف الناس على تسمية الأسرة باسمه .

٧ — وإذا كان قد أثنى على أبي الفتح على مسمع من ابن عباد ، فإن هذا الثناء لا يناقض أنه هو المقصود بهجائه ، لأنه كان يريد إغارة ابن عباد ، وتزيين الكرم له ، حتى لا يكون أقل شأنًا من منافسه أبي الفتح ابن العميد ، ولأنه حينما مدح أبا الفتح في مجلس ابن عباد لم يكن قد هجاه بعد ، وإنما هجاه وهجا ابن عباد بعد أن فارقه يائسا منه ، كما يئس من أبي الفتح ابن العميد قبله .

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| (١) معجم الأدباء ١٤ / ٢٠٢ | (٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢٠٣ |
| (٣) معجم الأدباء ١٤ / ٢١٣ | (٤) ١٤ / ٢١٤ |
| (٥) ١٤ / ٢١٦ | (٦) ١٤ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ |
| (٧) ١٤ / ٢١٦ | |

ثم إن أبا حيان لم يحمل كتابه كله هجاء للوزيرين ، بل شهد لها بكثير من الفضل ، وعنفهما حيث يستحقان التعنيف في نظره ، وإن كان أشد قسوة على الصاحب ، كما سيتضح لنا من دراسة الكتاب . فثناؤه على أبي الفتح ماهر إلا اعتراف بالحق الذي يعرفه أبو حيان .

قال أبو حيان في تمجيد أبي الفتح على مسمع من ابن عباد :

« ما ذنبى إذا قال لى — يريد ابن عباد — هل وصلت إلى ابن المميد أبي الفتح ؟ فأقول : نعم رأيته ، وحضرت مجلسه ، وشاهدت ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مَدَح به كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافى بكذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا ، فينزوى وجهه ، وينجذب إلى شىء آخر ليس مما شِرع فيه ولا مما حَرَّكَ له . ثم يقول : أعلم أنك إنما انتجمته من المراق ، فأقرأ على رسالتك التى توسلت إليه بها ، وأسهب مقررًا له فيها ، فأتمنع ، فيأمر ، ويشدد ، فأقرؤها فيتمير ويذْهَل » (١)

على أنه قد اعترف لأبى الفتح بالعلم وإعزاز الأدباء وإجزال المطاء لهم حينئذ . زار بغداد ، فلم يغمطه حقّه ، أو يتجاهل ما تراه (٢) .

وشبيه بهذا أن أبا حيان فصل المقال في النزاع بين أبي الفتح وابن المميد والصاحب ابن عباد ، وسبب القبض على أبي الفتح (٣) غير متحيز إلى أحدهما ، وغير شامت في أيهما . وعلى الرغم من حنقه الشديد على ابن عباد في مواضع

(١) معجم الأدباء ٣٦/١٥ (٢) معجم الأدباء ٢١٣/١٢ — ٢١٥

(٣) معجم الأدباء ٢١٥/١٤ — ٢٢٧

الأخرى من كتابه ، فإنه ختم تفصيل الحادث بقوله : « وولى ابن عباد الوزارة ،
 وودبرها برأى وثيق ، ووجد رتيق » .

وبعد :

فإننا نؤكد نوقن بأن المقصود هو ابن العميد الصغير ، وهو على بن محمد
 ابن الحسين ، الملقب بذي السكفيتين ، كناية السيف وكفاية القلم ، وزير لركن
 الدولة البويهى لما مات أبوه أبو الفضل ابن العميد سنة ٣٦٠ هـ ، ثم وزير لابنه
 حمؤيد الدولة ، إلى أن قتل سنة ٣٦٦ هـ ^(١) .

صلته بابن عباد

من ابن عباد؟

اتصل بالصاحب ابن عباد بعد أن اتصل ابن العميد ، ثم هجأهما معا في كتاب مثالب الوزيرين^(١) . وكان إخفاق أمه في ابن العميد — أبي الفتح لا أبي الفضل كما رأينا — باعثا له على أن يؤمل في ابن عباد . فعاش في بلاطه بمدينة الري من عام ٣٦٧ إلى ٣٧٠ هـ (٩٧٧ — ٩٨٠ م) ، ولكنه لم ينل حظوته عنده^(٢) ، ففارقه إلى بغداد . وهو يتحدث عن إخفاقه بقوله : فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة ، راجعا إلى مدينة السلام بنير زاد ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم واحد^(٣) .

وقبل أن نعرض رأيه في الصاحب نعرف به تعريفا وجيزا ، يكشف عن علمه وأدبه وأخلاقه ومكانته .

ثم نملل لإخفاق أبي حيان في صلته به .

١ — كتب الصاحب (إسماعيل بن عباد) لأبي الفضل ابن العميد وهو وزير ، ثم كتب لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهى وهو أمير . فلما تولى مؤيد الدولة بعد أبيه استوزر أبا الفتح ابن العميد ، ثم استوزره الصاحب ، وحكمه في أمواله ، وهو الذى كان لقبه بالصاحب أيام إمارته ، لأنه كان يصحبه ويأنس به^(٤) . وقيل إنه سعى

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٥

(٢) مرجليوث . دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ / ٣٣٤

(٣) معجم الأدباء ١٥ / ٣٢

(٤) معجم الأدباء ٦ / ١٧٣ وبغية الوعاة ١٩٦

بالصاحب ، لأنه صاحب ابن العميد^(١) . فلما مات مؤيد الدولة مكّسن صاحب لأخيه نحر الدولة أن يملك البلاد ، فأقر صاحب على الوزارة ، وبقي بها مقدم الكلمة إلى أن مات سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) بعد أن قضى في الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرًا واحدًا^(٢) .

٢ — وقد كانت الخصومة شديدة بين أبي الفتح ابن العميد والصاحب ابن عباد ، لأن مؤيد الدولة استوزر أبا الفتح أولاً ، فأراد أبو الفتح أن يطمئن على منصبه ، فطلب من مؤيد الدولة أن يبعد ابن عباد عن الرّى — العاصمة آنذاك — فأبعده إلى أصبهان ، فلما عزل أبو الفتح وصودرت أملاكه وسجن وقتل ، حل ابن عباد في الوزارة محله .

ولهذا عاش الرجلان متعادين ، وكانت كراهية ابن عباد لأبي الفتح ذات أثر في صلة ابن عباد بأبي حيان كما سيحيى .

وهناك سبب آخر لتمامدى الرجلين ، أن أبا الفتح كان قد دبر الحيلة للقضاء على ابن عباد ، وأن ابن عباد كان قد فعل مثله ، حتى قيل إن دسائس ابن عباد هي التي مزلت أبا الفتح^(٣) .

٣ — درس صاحب على أبيه وعلى ابن العميد وابن فارس^(٤) .

وكان مولما بالقراءة واقتناء الكتب ، لهذا اعتذر لنوح بن منصور ملك خراسان إذ أرسل إليه يستدعيه ليسلم له مقابليد مملكته ويتخذ وزيراً ، بأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة بعير وأكثر لقلها^(٥) .

(١) وفيات الأعيان ١ / ٢٧٥ (٢) معجم الأدباء ٦ / ١٧١

(٣) معجم الأدباء ٦ / ١٧٢ ، ٢٥٠ و ١٤ / ١٩٤ ، ٢٠٦ وقيمة الدهر ٣ / ١٦٧

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٧٥

(٥) قيمة الدهر ٣ / ٣٥ ومعجم الأدباء ٦ / ٢٥٩

وقد رأى الحسن البیهقی مکتبة الصاحب بمدينة الری ، وقال إن فهرس کتبتها فی عشرة مجلدات^(١) .

وخلف الصاحب مؤلفات شتی ، منها : المحيط بالامنة فی عشرة مجلدات ، وديوان رسائله فی عشرة مجلدات ، والسکافی (رسائل) والزیدية ، وغيرها^(٢) .

وکان الناس علی ثقة من علمه وأدبه ، ولذا تراحموا علی دروسه^(٣) .

٤ - وقد اشتهر بالکرم والإفداف علی الأدباء الذین یمدحونه ، ففی کل لیلة من رمضان کان یفطر عنده ألف نفس^(٤) .

ومدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين^(٥) ، وکان یمدق علیهم ، ویقرهم ، ویعرف أقدارهم ، وکانوا به ممجبین ، وطالما مدحوه وأشادوا به .

بل کانت فواضله تنعم من فی بغداد ومكة والمدينة من أهل الشرف والکتاب والشعراء وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء^(٦) .

وکان فی مجالس العلماء والأدباء ديمقراطیا ، یقول لهم : نحن بالنهار سلطان وباللیل إخوان^(٧) .

حدث أبو الحسن النجوى قال : کان مکی المنشد قديم الصبغة والخدمة للصاحب ، فأساء إلیه غیر مرة ، والصاحب یتجاوز له . فلما کثر ذلك منه حبسه فی دار الضرب ، وکانت فی جواره ، فصعد الصاحب يوما سطح داره ، وأشرف علی دار الضرب ، فناداه مکی وقال « فأطلع فرآه فی سواء

(١) معجم الأدباء ٦ / ٢٥٩ (٢) معجم الأدباء ٦ / ٢٦٠

(٣) بغية الدعاة ١٩٦ (٤) يتيمة الدهر ٣ / ٣٦

(٥) معجم الأدباء ٦ / ٢٥٧ (٦) معجم الأدباء ٦ / ٣٠٠

(٧) المعجم ٦ / ١٨٦

« الجحيم » فضحك الصاحب وقال له : « اخسثوا فيها ولا تكلمون » ثم أمر بإطلاقه (١) .

وأطراه الثعالب كثيرا ، من إطرائه قوله : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلال شأنه في الجود والكرم ، وتفرد بغايات المحاسن ، وجمه أشتات المفاخر . . هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحلهم ، وموسم فضلائهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وسنائمه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وإنعام يجده . . واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يرى عددهم على شعراء الرشيد » :

وذكر أسماء الذين وفدوا عليه من شعراء وكتاب وخطباء ، وأسماء الذين راسلوه ، وهم كثير (٢) .

٥ — وقد كان الصاحب مهيبا في عيون الحكام ، مثل مهابته في عيون العلماء والأدباء .

ففي سنة ٣٧٠ هـ ورد الصاحب ابن عباد الخدمة عن مؤيد الدولة وعن نفسه ، فتلقاء عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالغ في إكرامه ، ورسم لأكابر كتابه وأصحابه تعظيمه ، ففعلوا ذلك ، حتى إنهم كانوا يسمون إليه مدة مقامه ، ولم يسع هو إلى أحد منهم .

(١) المعجم ٦ / ١٨٦

(٢) يتيمة الدهر للثعالب ٣ / ١٦٩

ثم وردت كتب مؤيد الدولة يستعطف فيها مقام الصاحب ، ويذكر اضطراب
أموره في بعده .

وخلع عضد الدولة على الصاحب الخلع الجليلية ، وحمله على فرس بمركب ذهب ،
وأقطعه ضياعا جليلية بنواحي فارس^(١) ...

وقد ذكر الآبي في تاريخ ابن عباد أنه قد كان جليل القدر عند الخاصة
والأمراء ، وأن أمه لما توفيت سنة ٣٨٤ هـ ركب إليه سلطانه وولى نعمته فخر
الدولة ابن ركن الدولة ممزيا ، وجلس عنده طويلا يعزیه . فأما سائر الأمراء
والقواد والأكابر والأماثل فقد حضروا حفلة حسرا . وكان كل واحد منهم
إذا وقعت عينه على الصاحب قبيل الأرض ثم دنا منه ، فيأمره الصاحب بالجلوس
فيجلس^(٢) ...

ولم يكن تقدير الناس له في حياته عن رهبة أو مَلَق ، لأنهم قدروه ميتا
أيضاً ، يدل على ذلك أنه لما جهز بعد الوفاة وضع في تابوته ، وأخرج على أكتاف
حاملية للصلاة عليه ، فقام الناس بأجمعهم ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرقوا
ثيابهم ، واطمأ وجوههم ، وبلغوا في البكاء والنحيب جهدهم^(٣) .

لماذا أهتم ابن عباد :

شككا أبو حيان مرارا من إهمال الصاحب له ، ومن خيبة أمله فيه ، وهجاء
هجاء مقنعا في كتابه مثالب الوزيرين ، وفي كتابه الإمتاع والمؤانسة كما سيجيء .
ولم يكن إهمال ابن عباد لأبي حيان جريا على إهماله لغيره من العلماء والأدباء ،

(٢) معجم الأدباء ٢٣٨/٦

(١) ذيل تجارب الأمم ١١

(٣) معجم الأدباء ٢٥٧/٦

فقد عرفنا أنه كان عظيم الإكرام لهم . ولا لغيرته منه ، أو حسده له ، كما صور أبو حيان ، وإنما يرجع إهماله له إلى أسباب أخرى نراها .

١ - لم يكن أبو حيان على قسط من اللباقة التي تحببه إلى الوزير ابن عباد ، وهو وزير معتد بنفسه ، معتاد على مراسم في معاملة الوزراء من أبناء الفرس . وقد كتب - قبل أن يسكون وزيرا - لابن العميد وللأمير مؤيد الدولة البويهى ، فعرف مداخل الناس إلى القلوب ، وجرب الكياسة في مجالس الكبراء والساسة .

أما أبو حيان فكان عالما أديبا متصوفا معتدا بعلمه وأدبه ، وكان لا يراعى التقاليد التي ألفها ابن عباد ، ويريد أن يستنسخ جلساؤه وأتباعه في معاملته .

فقد مدح خصمه البغيض إليه أبا الفتح ابن العميد على مسممه^(١) ، وهو يعلم ما كان بينهما من مودة ، كانت تحم عليه أن يلوذ بالصمت إذا ما جاء ذكر أبي الفتح ، أو يصرف الحديث إلى وجه آخر ، أو يذكر المثالب التي يعرفها عن أبي الفتح .

ولا يشفع لأبي حيان أن الصاحب هو الذى كان يطلب منه أن يسممه أخبار ابن العميد ، فإن أبا حيان نفسه يمتدح بأن الصاحب كان يضييق صدره ، ويتجهم . ويظهر أن بعض الناس قد لام أبا حيان في ذلك ، وفي إسماعه رسالته المطولة التي توصل بها إلى أبي الفتح ابن العميد ، لأنه يقول : « كان يقال لى من بعدك : جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير ، وأثنت عليه ، وجملته سيد الناس »^(٢) .

٢ - وكان يتجراً في مجلس الصاحب ، ويرد عليه ، ويمازحه ، ولم يكن الصاحب بطليق ذلك .

وحدث أبو حيان فقال : « قال لي ابن عباد يوماً : يا أبا حيان ، من كسناك بأبي حيان ؟ قلت : أجل الناس في زمانه ، وأكرمهم في وقته . قال : ومن هو ؟ وبيك . قلت : أنت . قال : ومتى كان ذلك ؟ قلت : حين قلت : يا أبا حيان ، من كسناك أبا حيان . فأضرب عن هذا الحديث ، وأخذ في غيره على كراهة ظهرت عليه » (١) .

ومن حق أبي حيان أن يدهش من تجههم ابن عباد إذ سمع هذا الرد الجميل ، وهذا التخلص الفكه ، ومن حقه أن ندهش معه ، ونلوم ابن عباد على تكرهه واشتمزازه . لكن من بعض الإنصاف لابن عباد أن نذكر بأنه كان جاداً في سؤاله ، فهو يتوقع الجواب الصريح لا المغاكة والمداورة ، لأنه سأل أبا حيان عن كناه بهذه السكنية ، وكان ينتظر الجواب لا ألف والدوران والخداع وما يشبه الضحك منه ، إذ أنه مكسني بأبي حيان قبل أن يقول له ابن عباد : يا أبا حيان .

وكذلك ذكر أبو حيان أنه لما وصل إلى صاحب قال له : أبو من ؟ فقال : أبو حيان : فقال صاحب : بلغني أنك تقادب . فأجاب بقوله : تأدب أهل الزمان .

فسأله صاحب : أبو حيان ينصرف أولاً ينصرف ؟ فأجاب بقوله : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع صاحب هذه الإجابة تنمر ، وكأنها لم تعجبه ، وأقبل على واحد إلى جانبه ، وقال له بالفارسية سقمها ، كما نقل إلى بعد (٢) .
والمشكلة هنا أن صاحب جاد وأبا حيان هازل متفكه . فهو يسأله عن كلمة (حيان) أتصرف أم لا تنصرف ، ويتوقع الجواب الصرفي ، فإذا هو يسمع جواباً

آخر من أسلوب الحكيم ، وفيه دعاية أقرب ما تكون إلى الخداع .

(٣) ويظهر من بعض ما أورده أبو حيان أنه كان يباهى بعلمه في مجلس ابن عباد ، وكان لا يراعى ما يقتضيه المقام في كثير من الأحيان .

حدث أن ذكر الصاحب أن الكلمات التي على وزن فَعْل لا تجمع على أفعال إلا قليلا ، ومثل لذلك بثلاث كلمات ، فرد عليه أبو حيان بأن هذا الحكم الذي قال به النحاة يفتضيه الاستقراء والسماع ، وبأنه يحفظ ثلاثين كلمة على وزن فَعْل وتجمع على أفعال ، فطالبه الصاحب بذكرها ، فذكرها وذكر مراجعها ، ثم أراد أن يستعرد إلى التذليل على خطأ آخر للنحاة ، فلم يستمع له الصاحب وقال له : « لانهب آذاننا لسكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا ، وتبسطك في حضرتنا ^(١) » .

وقال أبو حيان : قال لي الصاحب يوماً — وهو يُحَدِّث عن رجل أعطاه شيئاً ففلسكاً في قبوله — : ولا بُدَّ من شيء يمين على الدهر . ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم علمه .

فقلت : أنا أحفظ ذلك . فنظر بغضب فقال : ما هو ؟ قلت : نسيت . فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك . قلت : ذكرته والحال سليمة ، فلما استمحات عن السلامة نسيت . قال : وما حياؤولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب ، فوجب في حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب . قال : ومن تكون حتى نغضب عليك ؟ دع هذا وهات : قلت : قول الشاعر :

الام على أخذ القليل وإنما أصادف أقواما أقل من الذر

غيان أنا لم آخذ قليلاً من حرْمَتِهِ ولا بد من شيء يعين على الدهر فسكت (١) .

وهنا أخطأ أبو حيان ، وأخطأ صاحب .

أما أبو حيان فقد أخطأ ، لأن في جهره بأنه يعلم ما جهله صاحب وغيره تعالياً على صاحب يؤذيه ، ولأن في ذكر البيتين معاً تشنيعاً على صاحب ، فلقد كان الرجل الذي ذكر للصاحب عجز البيت الثاني لبقاً ، لجأ إلى التعميرض بالمعبد ، فجاء أبو حيان ، فطرح اللباقة جانباً ، وذكر البيتين معاً ، فجرح صاحب ، لأنه جعله بإعطائه القليل أقل من النمل .

ولعل صاحب كان يعرف البيتين ، لكنه يتجاهل ، ولعل الذين سألهم كانوا يعرفونهما ، لكنهم تجاهلوا ، رعاية لقدر صاحب وكرامته .

(٤) ثم إن أبا حيان أساء إلى ابن عباد في حادثين آخرين ذكرهما ، ولم تخف أساءته على ابن عباد .

قال أبو حيان إنه لما وصل إلى صاحب قال له : الزم دارنا ، وانسخ هذا الكتاب . فقال أبو حيان : أنا سامع مطيع . ثم شكاً لبعض الناس بأنه توجه من العراق إلى صاحب ليتخلص من حرفة الشؤم ، فإن الوراقة لم تكن ينفداد كاسدة . فتسمى هذا الكلام إلى صاحب كله أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكراً (٢) .

وهنا يظهر أبو حيان غير صبور ، ومتسرعاً إلى العطاء أو إلى وظيفة ، ويظهر على قدر كبير من الجهل بما يدور في قصور الأمراء والوزراء من

دسائس ، والراجح أن كلامه نقل مشوّهاً كما توقع ، والراجح أن الذين سمعوا
تَمَنُّهُ وتكرهه لنسخ الكتاب وجدوا الفرصة مواتية لإبعاد هذا الغريب
الطاريء ، الذي قد يستأثر ببعض مالهم من حظوة ، فسَمَّوْا بينه وبين صاحب .
وحدث أبو حيان قال : قدَّم إلى (نجاح^(١)) الخادم — وكان ينظر في خزانة
كتب صاحب ثلاثين مجلدة من رسائله ، وقال : يقول لك مولانا : انسخ هذا ،
فإنه قد طلب منه بخراسان ، فقلت بعد ارتياء (تدبر وإمعان) : هذا طويل ،
ولكن لو أُذِنَ لَخَرَجْتُ منه فقَرَأَ كالغُرر ، وشذوراً كالدرر ، تدور في
الجالس كالشمامات والدُّسْتَنَبِيْهِاتِ^(٢) ، لَوُرِّقَ بها مجنون لأفاق ، أو نُفِثَتْ
على ذى عاهة لبرأ ، لا تُمَلِّ ولا تُسْتَنْفِثْ ، ولا تعاب ولا تُسْتَرْكَبُ^(٣) .

فرفع ذلك إليه — وأنا لا أعلم — فقال صاحب : طمئن في رسائل
وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزري بها ، والله لينسكن^(٤) منى ما عرف ، وليعرفن
حظه إذا انصرف . حتى كأنى طمعت في القرآن ، أو رميت السكبة بخرق
الحبيص ، أو عقرت ناقة صالح ، أو سَكَحَتْ في بئر زمزم ... »^(٥)

فهو يستكره أن ينسخ رسائل صاحب .

وبصرح بأنه يستطيع استخلاص فقر منها أعظم قيمة من غيرها ، أى
أنه أعظم خبرة بالجيد والردىء من صاحب الرسائل . ولا شك في أن هذا
يفضّب ابن عباد ، مهما يكن أبو حيان نبيل القصد ، سليم الطويّة . ومن بدرى ،
فلعل أبا حيان قال أكثر مما ذكره ، وربما وصل كلامه إلى ابن عباد محرّفاً
ومضخماً .

(١) العمام : بطلخ صغير مخطوط بصفرة وخضرة ، وفارسيته الدستوبوهات ، راحته
باردة طيبة . يريد من ضرب المثل الرغبة في كلام صاحب والتفكك به .
(٢) لا تعد ركبة (٣) معجم الأدباء ١٥ / ٣٤ .

(٥) وليس الحسد الذي توهم أبو حيان أنه يأكل قلب الصاحب إلا ضرباً من اللوم والأنفة من جرأته في مجلسه . يقول أبو حيان إن الصاحب كان يحسده ، لأنه « كان شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ . . . حدثت ليسة بحديث ، فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده ، ثم قيل لي بعده : إنه كان يقول : قاتل الله ابن حيان ، فإنه تكبد ، وإنه ، وإنه . وأكره أن أروى ذى بقلى . وكان ذلك كله حسداً وغيظاً بختاً » (١) .

هجاء أبي حيان للصاحب

وكانت نتيجة هذه الصلة المدخولة أن ترك أبو حيان الصاحب ، وهاد إلى بغداد . ثم ثار منه ثأراً عنيفاً في كتابه مثالب الوزيرين ، يظهر من الصفحات الباقية من هذا الكتاب في معجم الأدباء وفي الإمتاع والمؤانسة أن الحملات على ابن عبادة أعنف وأشد من الحملة على ابن العميد .

رجع من عند الصاحب ابن عبادة إلى بغداد سنة ٣٧٠ هـ كما قال : « بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحداً . ولما نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به وأحفظني عليه ، وجعلني من جميع غاشيته فرداً ، أخذت أملئ في ذلك بصدق القول عنه ، وسوء الثناء عليه . والبادئ أظلم ، وللأمر أسباب ، والأسباب أسرار ، والغيب لا يُطْلَع عليه ، ولا قارع لبابه » (٢) .

روى أن أبا الوفاء المهندس قال له : « إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت

(١) معجم الأدباء ٤٤ / ١٥

(٢) معجم الأدباء ٣٢ / ١٥

من الرقى إلى بغداد سنة سبعين (وثلاثمائة) بعد فوت مأمولك من ذى
الكفائتين (ابن العميد) - نضر الله وجهه - عابسا على ابن عباد ، من نظامه ،
مقروح السكبد ، لما نالك من الحرمان الرى والصدّ القبيح ، واللقاء السكريد ،
والجفاء الفاحش ، والقصد المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتنافس عن الثواب على
الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهّم المتوالى عند كل لحظة
ولفظة ... » (١) .

وأبو حيان يدافع عن نفسه كثيرا ، كقوله :

« وما ذنبى يا قوم إذ لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذى
يسْتَحْسِنُ هذا السكب - يريد المصاحب - ويقول : « حتى كأنى قلت كان
النظام مأبونا ، أو مات أبو هاشم فى بيت خمار ، أو كان عبّاد معلم صبيان ... » (٢)
ويقول :

« ما ذنبى إذا قال لى : هل وصلت إلى ابن العميد أبى الفتح ؟ فأقول : نعم ،
رأيتّه ، وحضرت بحسه ، وشاهدت ما جرى له . وكان من حديثه فيما مُدِرِح به
كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تسكفه من تقديم أهل العلم
واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أباسعيد السيرانى بكذا وكذا ،
ووهب لأب سليمان المنطقى كذا وكذا . فينزوى وجهه ، ويُشْكِرُ حديثه ،
ويجذب إلى شيء آخر ليس مما مُشْرِع فيه . ثم يقول : أعلم أنك انتبهت من

المراق ، قافراً على رسالتك التي توسلت إليه بها ، وأسهبّت مقرظاً له فيها .
فأتماع ، فيأمر ويشدد ، فأقرؤها ، فيتغير وينذهل » (١) .

ويظهر أن أبا حيان قد نسي في ثورة غضبه أنه مَساوم في كثير مما فرط منه
في معاملة الصاحب ، ونسى أنه قد عرف الصاحب قبل أن يقصده ، وحضر
مجلسه ، وبات عنده سنة ٣٥٨ هـ .

قال أبو حيان : « كنت بالرى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وابن عباد بها
مع مؤيد الدولة قد ورد في مهمات وحوائج ، وعقد لابن عباد مجلس جدل . وكنا
ببيت عندي في داره ومنا الضير أبو العباس القاضي و ... » (٢) .

وهو يتحدث عما دار في مجلس الصاحب سنة ٣٥٨ هـ قبل أن يتصل به ،
فنفهم من حديثه أن الصاحب كان رجلاً جاداً واستقامة ، وأنه كان يحلم على من
يتناول عليه ، بل يحلم عليه ويكرمه .

ذكر التوحيدى أنه حضر مجلس جدل لابن عباد بالرى ، وأن ابن عباد
« رأى في مجلسه رجلاً غريباً صاحب مُرَقَّة ، فأحب أن يعرفه ، ويعرف ما عنده .
فقال له : يا أخ انبسط واستأنس وتسكلم ، فلك منا جانب وطىء وشرب مرىء ،
ولن ترى إلا البر . ثم تعرف؟ فقال : بدّ قاق . قال : تدق ماذا ؟ قال : أدق الخصم
لماذا زاغ عن سبيل الحق . فلما سمع ابن عباد هذا الرد تنسكرو عجب ، لأنه مُجفىء
ببذئثة » .

ولسكنه مع ذلك حلم وجمل يحاور الشخص ، وهو لا يزداد إلا تعمية ،
فاغتاظ ابن عباد . ثم عزم عليه أن يبيت في داره ، فأبى (٣) .

(٢) مجمع الأدباء ٢٠٩/٦

(١) مجمع الأدباء ٣٦/١٥

(٣) مجمع الأدباء ٢٠٩/٦ — ٢١٢

وسنمرف في أخلاق أبي حيان أنه كان متوفز الحس ، مريع الانقلاب ، حاد-
اللسان والقلم .

لذلك نصدق قول ياقوت إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد بالرى ، فلم
يرزق منه ، فرجع عنه ذاماً له ، وكان أبو حيان محبوباً على الغرام بثلب السكرام ،
فاجتهد في الغض من ابن عباد ، لكن فضائل ابن عباد كانت تأبى إلا أن تسوقه
إلى المدح وإيضاح مكارمه ، فصار ذمه له مدحاً ... (١)

صلته بابن سعدان

لقد جرب أبو حيان حظه مع أبي الفتح ابن العميد ، ثم جربه مع صاحب ابن عباد ، واحترق بالخبية ، ولم ينل عندها بعض ما كان يؤمل .
أفا آن للرجل أن يهدأ ، ويذهب في أمراء عصره ، ويفرغ لأدبه وعلمه ، أو لعبادته وزهده ؟

لا . وكأني به يتخذ من الإخفاق سبيلا إلى أمل جديد ، ينوطه بوزير أو كبير .
فما كاد يجر أبا الفتح ابن العميد حتى اتصل بالصاحب ابن عباد . ثم لم يلبث أن هجر صاحب ، حتى مدَّ الأمل إلى الوزير ابن سعدان .

ابن سعدان :

١ — هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة ابن عضد الدولة من سنة ٣٧٣ هـ ثم قتله صمصام الدولة سنة ٣٧٥ هـ (١) .

كان مجلسه حاليا بالحلة من علماء بغداد وأدائها . وكان طلمة إلى المعرفة كإثنين من أسئلته الكثيرة المتنوعة لأبي حيان في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) ومن تعقيبه على بعض الأجوبة .

٢ — ويظهر أن صلته بابن سعدان كانت في أول الأمر ندية مطمئنة . فقد نسخ له كتاب الحيوان للحافظ ، وألف له رسالة الصداقة ، وسامره بما في (الإمتاع والمؤانسة) وكان يقص عليه أحيانا بعض الملح والمجون ، وهذا دليل على زوال السكافة ، وانبساط النفس .

وليس أدل على هذا من أنه طلب من ابن سمدان أن يسمح له بتوجيه الخطاب
به بالكاف والفاء ، ليتخلص من مزاحمة الكناية ، وبمضايقاة التعريض ،
ليتسكلم من غير كلفة ولا هيبة ولا انقباض ، فأذن له ^(١) .

وهذا الاطمئنان إلى عطف ابن سمدان ، أطلق لسانه بالثناء عليه وعلى أخلاقه
كرمه ، حتى لقد فضله على أهل عصره كلهم ، في قوله :

« قد شاهدت ناسا في السفر والحضر ، صفارا وكبارا وأوساطا ، فاشاهدت
ن يدين بالمجد ، ويتحلى بالجود ، ويرتدى بالعفو ، ويتأزر بالحلم ، ويعطى بالجفاف ،
يفرح بالأضياف ، ويصل الإسماعف بالإسماعف ، والإتحاف بالإتحاف ، غيرك والله
نك تهب الدرهم والدينار ، وكأنك غضبان هليهما ، ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى
لثياب العزيزة والحلم النفيسة والتحليل العتاق والمراكب الثقال والعلمان والجواري » ^(٢)

وكان الذي وصله بابن سمدان صديقه أبو الوفاء المهندس ^(٣) ، لذلك عرف
به أبو حيان صنيعة ، وحدث ابن سمدان بفضلته عليه في قوله : أخذ بيدي ، ونظر
في معاشي « ونسّطني وبشرني ، ورعى عهدي . ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ،
وقلّدني بها القلادة الحسنى ، وشملني بهذه الخدمة ، وأذاقني حلاوة هذه المزية ،
وأوجهني عند نظرائي » ^(٤) وهو يقصد بالنعمة الكبرى والوجاهة العظمى صلته
بابن سمدان .

٣ — لكن حفظ الرجل النكسك يأتي إلا أن يلاحقه ، فنجده يشكو من
تفاضل ابن سمدان عنه ، ويالج في تذكير أبي الوفاء المهندس بوعود الوزير ، وأن
يذكره عنده بالخير ، ويكتب إلى ابن سمدان نفسه مستغنيا ملحقا .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢٢٤/٣

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٥٠/١

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢٠/١

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٩/١

قال أبو حيان في رسالة إلى ابن سمدان ، بعد أن سامره مدة : « كنت وصلت إلى مجلس الوزير ، وفزت بالشرف منه ، وخدمت دولته وعلاه ، وتصرفت من الحديث في شجونه وفنونه ، كل ذلك في جدوى آخذها ، وحظوة أحظى بها ، ومثالة أحسدُ عليها . فتقبل ذلك كله ، ووعد عليه خيرا ، فأنقلبت إلى أهلى مسرورا بوجه مسفر ومحيا طلق ... ثم حصلت من ذلك الوعد والضمان على بعض تميلات الزمن ، وبقيت محمولا بيني وبين إذكاره ، حيران لا أريش ولا أبرى ... ثم وضع العذر المبين ، وذلك أنى رأيت أعباء الوزارة تثود سره ، وتعمب باله . فلما تيقنت ذلك كله أمسكت من إذكاره ، ولكن كان ذلك الإمعان على رغم منى ، لأنى قتلت في أثنائه بين جنبي قلبا مفرور الرجاء ، منزور العزاء ... وأسأل الوزير أن يجنبني مرارة الخيبة وحسرة الإخفاق وعذاب التسويف »^(١)

واستنجد بصديقه أبى الوفاء المهندس لينذكر ابن سمدان بالإععام عليه : « أيها السيد ، أقصر تأميلي ، وتذكر العهد في صحبتي ، طالب نفسك بما قطع حجتى ، دعنى من التعليل الذى لا مردَّ له .

ذكر الوزير أمرى ، وكرر على أذنه ذكرى ، وابعثه على الإحسان إلى . قلت : الوزير مشغول ، فما أصنع به إذا فرغ ؟ »^(٢)

٤ — لماذا تغافل عنه ابن سمدان ؟

ما الذى غير عليه ابن سمدان ، فتشغل عنه أو تغافل ؟

يظهر أن الدسائس التى كادت له من قبل هى التى كادته هنا أيضا ، مضافة إلى غفلته عن اللباقة وحسن التصرف فى مباشرة الوزراء .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢٠٧/٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢٩٦/٣

وفي كتاب (الإمتاع والمؤانسة) ما نستشف منه هذا التعليل .

ذلك أن ابن سعدان كان قد أنس إلى أبي حيان ، وكان يسأله عن بعض ما يخفى عليه من أسرار الساسة والكبراء كابن جبلة الكاتب وابن برمويه^(١) وابن شاهويه^(٢) وابن بهرام^(٣) وغيرهم^(٤) .

وقد عرض بهم جميعا أبو حيان ، وفيهم من يقر بهم ابن سعدان كابن شاهويه ، وبهرام بن سعيد .

وبحسبنا قوله في بعضهم : « كفاك الله عين الحاسدين ، ووفاك كيد المفسدين ، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رؤوس الأثماد ، وكانوا كالخصي فجعلتهم كالأطواد ، وهم يكفرون بأباديك ، ويوالون أعاديك ، ويتمنون لك ما أرجو الله أن ينزله على أرواحهم »^(٥) .

ووصف ندماء ابن سعدان وصفا لا يرضيهم ، في رسالة الصداقة والصديق ، ولكنّه ادعى أنه سمع هذا الوصف من زيد بن رفاعه ، وزعم أن زيدا سمعه من ابن سعدان نفسه في وصف ندمائه ، وهو « كلام يصالح أن يكتب على الأحداق ، ويعرض على أهل الآفاق »^(٦) ، وخلاصة وصفه :

ا — أبو علي عيسى بن زرعة النصراني مختال ثروته وادعاء الحكمة .

ب — ابن هبيد الكاتب دائم الثروة في الخطابة والبلاغة ، وهو سبيء الخلق ذليل يوارى ذله .

(١) كاتب والده مصمم الدولة ومن تأمروا على الإيقاع بابن سعدان وقتله

(٢) وال كبير من ولاية مصمم الدولة وكان يتحكم تحكم الوزراء

(٣) من رجال مصمم الدولة ومن أصدقاء ابن سعدان

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٤٢/١ — ٤٨ و ١١٥/٢

(٥) الإمتاع والمؤانسة ٢٢٣/٣ (٦) الصداقة والصديق ٣١

- ح - ابن الحجاج الشاعر جمع بين المهابة والحياء وسخف الشعر .
و - أبو الوفاء المهندس مؤنس لطيف إلا أن لغته خراسانية .
ه - مسكويه دميم الخلقة ، مهذب الأخلاق ، دعى^١ في كل فن ، شخصيته
فانية في ذكره للمهلبى وابن العميد .
و - ابن بكر ، حلية المجلس ، جاهل خفيف الروح قبيح الوجه .
ز - أبو القاسم الأهوازي لا طعم له ، كالبدصل في القدر ، وكالإصبع الزائد
في اليد .

ح - ابن شاهويه شيخ لأفائدة فيه .

وهو يكتب لصديقه أبي الوفاء المهندس ما كان قد سامر به الوزير^(١) ، ويمترف
صراحة بأن بمضه واجب الإخفاء والستر ، لأن عقابه القتل والتبذيل ، وهو لهذا
يلج على أبي الوفاء أن يبالغ في كتمانها « وإن كان ذلك يمر بأشياء كثيرة ومختلفة ،
منها ما يشيط^٢ — يهدر — به الدم المحشون ، ويُنزَع من أجله الروح العزيز ،
ويستصغر معه الصلب ، ولا يُقنَع فيه بالمذاب الأدنى دون المذاب الأكبر »^(٣)
وليس بمستبعد أن يكون هؤلاء كلهم أو بعضهم قد علموا بتطاوله عليهم
في مجلس ابن سعدان ، فقبحوه إليه ، ووشوا به ، وشغلوه عنه .
ثم كانت النهاية أن قتل ابن سعدان سنة ٣٧٥ هـ ، بعد أن دبر عبد العزيز
ابن يوسف مؤامرة لـ عزله ، وقتله ، وتولى الوزارة من بعده لصمصام الدولة ،
وشاركه فيها ابن برمويه .

(١) طاب أبو الوفاء من أبي حيان أن يكتب له ما سامر به الوزير ، فكتبه في (الإمتاع
والمؤاسة)

(٢) الإمتاع والمؤاسة ١/١٢٠

ولقد نكل ابن يوسف بأعوان ابن سعدان .

فمن البديهي أن يتوقع أبو حيان التمشكيل به ، لأنه من رجال الوزير المقتول ، ولأنه كان قد ثلب ابن يوسف وابن برمويه في مسامراته لابن سعدان^(١) ، كقوله : « ابن يوسف أخس خلق الله ، وأنتن الناس ، وأقذر الناس ، لا منظر ولا مخبر ، وكانت أمه مغنية من أهل البيضاء ، وأبوه من أسقاط الناس ، ونشأ مع أشكاله ، ثم إن الزمان نوحه به ، وكذلك يرتفع الساقط إذا ساعده الجدد » .

وإذا فليهرب أبو حيان إلى أن يحدث الله أمرا . وبعد مدة ظهر في شيراز ، وخالط المتصوفة وعاش معهم ، بعيدا عن سلطان ابن يوسف وابن عباد .
على أن ابن يوسف كان ينقم من أبي حيان شيئا آخر ، هو أنه ثلب ابن عباد ، وابن يوسف كان يمدحه ، ويجله إلى حد الخنوع^(٢) .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢٢١/٣ ، ١٥٠ و ١٦١/١

(٢) يتيمة الدهر ٩٢/٢

أخلاقه

لم يكن أبو حيان مُزَوِّداً بأخلاق عالية تَمْدِدُ علمه وأدبه ، ولو أنه كان كذلك لصار نادرة في دهره ، ومثلاً عالياً في عصره وبعد عصره . اسكن الرجل كان في أخلاقه بشراً عادياً ، يمتريه الضعف أكثر مما تمتريه القوة ، ويقع في الخطأ أكثر مما يقع على الصواب .

— ١ —

فهو كما ذكر ياقوت «سَخِيفُ اللسان ، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، الذمُّ شَأْنُهُ ، والشُّلْبُ دُكَّانُهُ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَحْدُوداً مُجَارَفاً^(١) يَتَشَكَّى صَرَفَ زَمَانِهِ ، وَيَبْكِي فِي تَصَانِيفِهِ عَلَى حِرْمَانِهِ^(٢) .

ولا سبيل لتفنيد ما قاله ياقوت ، فقد كان أبو حيان عيانياً سَنَاطِطُ اللسان ، ونحن نستنبط ذلك من كلامه .

فقد حكى عن نفسه في كتابه (المحاضرات) : كُنْتُ بِمَحْضَرَةِ أَبِي سَمِيدٍ السَّيرَاقِيّ ، فَوَجَدْتُ بِحُطْهِ عَلَى ظَهْرِ كِتَابِ الْأَشْمَعِ فِي شَوَازِ التَّفْسِيرِ — وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ — فَأَخَذْتُهُ وَنَظَرْتُ ، قَالَ : ذِمَّ أَعْرَابُ رَجُلًا فَقَالَ : لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ يُحْتَمَلُ عَلَيْهِ ، وَلَا آخِرٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ ، وَلَا عَقْلٌ يَزْكُو بِهِ عَاقِلٌ لَدَيْهِ . وَأَنْشَدَ :

حَسِبْتُكَ إِنْسَانًا عَلَى غَيْرِ خُبْرَةٍ فَكَشَفْتُ عَنْ كَلْبٍ أَكَبَّ عَلَى عَظْمٍ
لَحَى اللَّهَ رَأْيَا قَادَ نَحْوِكَ هَمِي فَأَعْقَبَنِي طُولَ الْمَقَامِ عَلَى الدَّمِ

(١) محدود : محارف : محروم

(٢) معجم الأدباء ٦/١٥

فقلت هذا .

فقال لى : يا أبا حيان : ما الذى كنت تكتب ؟

فقلت : الحكاية التى على ظهر هذا الكتاب . فأخذها وتأملها .

وقال : تأبى إلا الاشتغال بالقَدْح والذم وثلب الناس .

فقلت : أدام الله الإمتاع ، شغل كل ناس بما هو مَبْتَغَى به مدفوع

إليه « (١) .

فنحن نراه هنا ممجبا بدم الأعرابي نثره وشعره ، ونجده ينقل هذا الدم ،

ونرى السيرافى يمارحه بأنه دءوب على الاشتغال بالقَدْح وثلب الناس : ثم نجد

أبا حيان لا يرد عن نفسه هذا الوصف ، ولا يخجل منه ، بل يوافقه ويستديمه

ويبرره بأنه نوع من المتعة ، وبأن كل إنسان مشغول بما تُرْكَب فى طبعه .

وقد ذكرنا نبذا من هجائه لابن عباد وكثير من رجال ابن سميان

فى تحليل كتبه .

ولم يسلم من قوارص كله حتى الذين أحسنوا إليه كالمذبحى .

- ٣ -

وكان طماعا شديدا الرغبة إلى عطاء الوزراء ، وهذا هو السبب فى صلته بابن

العميد وابن عباد وابن سميان وغيرهم .

وقد عرفنا أنه هجا ابن العميد وابن عباد فى كتاب كامل ؛ لأنهما لم ينيلا .

ما أراد . وعرفنا أنه طلب من ابن سميان صراحة وفى إلحاح ، وذكر أبا الوفاء

المهندس بوعود الوزير ، وأراد أن يذكر الوزير بها .

وكان يستحسن العطاء الكثير وإن لم يكن له .

قال فى كتاب مثالب الوزيرين :

جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء ، قال لى مرة : أمارى إلى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق .

فقلت بعد ما أطل الحديث وقطع بالأسف : أيها الشيخ ، أسألك عن شىء واحد ، فأصدق ، فإنه لا مدب للسكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضمافه وأضعاف أضمافه ، أكنت تخشيه فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا ، أو جاهلا يحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أركب عليه ؟ فإن كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يردُّ ورُدَّ مكالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدمى الحكمة ، وتتسكف الأخلاق ، وتزيف الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطس لأمرك ، وشرك «^(١) .

ولقد كان أبو حيان يستطيع أن يعيش من الوراثة ومن العلم ، ويرفع عن التأميل فى وزراء عصره ، وكانت له أسوة فى كثير من أصدقائه ومخالطيه من العلماء والأدباء ، فقد كان كثير منهم محروما ، لكن أبا حيان لم يتأس بهم ، ولم ينظر إلى شظف حياتهم ، وإنما مدَّ بصره إلى نعمة رآها على غيرهم . ولا شك أن أبا حيان كان يستريح ويريح لو أنه نظر إلى حال أستاذه أبي سليمان النطنقى الذى عجز عن شراء طعامه ، أو إلى صديقه ابن يعيش الرقى الذى كان ظاهر الخصاصة^(٢) . أو إلى أبي بكر القومسى الذى وصفه أبو حيان بأنه كان بحرا عججا ، وسراجا وهاجا ، وكان من الضر والفاقة بمنزلة شديدة^(٣) وغير هؤلاء كثير حدثنا أبو حيان نفسه عن بؤسهم .

(١) معجم الأدباء ٥١/١٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٠٥/١

(٣) معجم الأدباء ١٢/١٥

وليته وقف عند حد الطمع ، فأأمل واشتاق وتطَلَّع ، ولم يتبدل إلى حد
الخنوع الذى ما كان يليق بمثله ، بل إنه أذل نفسه أشنع الذل ، ونسى عزته
أيما نسيان ، وكان لحواح فى طلبه ، وصبورا على طول الرجاء حيث يجب طرح الرجاء .
وكتبه تنطق بهذا كله .

ففى رسالته إلى أبى الفتح ابن العميد ، التى كتبها له قبل وصوله إليه ، تصاغر
واستجداء صريح .

منها قوله : لما رأيت شبابى هرما بالفقر ، وفقرى غنيا بالقناعة ، وقناعتى
هجرا عند أهل التحصيل ، عدلتُ إلى الزمان أطلب إليه مكانى فيه وموضعى منه ،
فرأيت طارفه نابيا ... فطمعتُ فى السكوت تجلدا ، وانتجحت القناعة رياضة ،
وادعيت الصبر مستمرا ... حتى لاحت لى مُغرة الأستاذ ، فقلت حل بى الويل ،
وسال بى السيل . أين أنا عن مَلِك الدنيا ، والفَلَك الدائر بالنعى ؟

أين أنا من مشرق الخير ومغرب الجليل ؟

أين أنا من يرى البخل كغيرا صريحا ، والإفضال دينا صحيحا ؟

أين أنا عن سماء لا تَفُتُّر عن المَـطَلان ، وعن بحر لا يقذف إلا باللواؤ
والمرجان ؟

لم لا أقصد بلاده ؟ لم لا أقتدح زناده ؟

لم لا أنتجح جَنابهِ وأرعى مزاده ؟

لم لا أسكن رَبِّهِ ؟ لم لا أستدعى نفعه ؟

لم لا أخطب مجوده ، وأهتصر عوده ؟

لم لا أستمطر سحابه ؟ لم لا أستسقى ربابه ؟

نعم لم لا أنتهى فى تقرىظ فتى لو كان من الملائكة لكان من المقربين ، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين ، ولو كان من الخلفاء لكان نعمته اللانثى بالله ، أو المنصف فى الله ، أو المعتمد بالله ، أو المنتصب لله ، أو الغاضب لله ...

أصليح أديبى فقد حليم — فسد — وجدد شبابى فقد هرم ، وأنطق اسانى فى اصطلاحى ، فقد شردت صحائف الذخيج عند انتجاعى ، ورش عظمى فقد براه الزمان ، واكس جلدى فقد عراه الحيدنان^(١) ...

« وكتب إلى أبى الوفاء المهندس رسالة تدلى فيها بشكواه وتذلل ، كقوله : « خلصنى من التكفف ، ألقنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضر ، اشتري بالإحسان ، اعتبدنى بالشكر ، اكفنى مثونة الغداء والعشاء ، إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الداوية ، والقميص المرقع ... إلى متى التأذم بالخبز والزيتون ؟ قد — والله — نجح الخلق ، وتغير الخلق ، اجبرنى ، فإنى مكسور ، اسقنى فإنى صدى ، أغثنى فإنى ملهوف ... قد أذانى السفر من بلد إلى بلد ، وخذلى الوقوف على باب باب ، ونسكنى العارف بى ، وتباعد عنى القريب منى »^(٢)

ولما أعانه أبو الوفاء ، أثنى عليه ثناء مستطاليا ، لكنه مزجه بخنوع ومذلة ، كقوله له : « أنا سامع مطيع ، وخدام شكور ، لا أشتري سخطك بكل صفراء وبيضاء^(٣) فى الدنيا .

أنت مولى وأنا عبد ، ومصطنع وأنا صنيعه ، وأنت مُنَشِئ وأنا مُنَشَأ ، وأنت أول وأنا آخر ، وأنت مأمول وأنا آمل^(٤) .

(٢) الإمتاع ٣/٣٦٦

(٤) الإمتاع ٨/١

(١) معجم الأدباء ١٥/٣٧

(٣) صفراء : ذهب ، بيضاء : فضة

وقوله : لا أجد أياديك القديمة والحديثة ، ولا أنكر نعمتك الكافية الشافية . أأنسى أياديك وهي مألوفة رقبتي ، وتجاه عيني ، وحشوا نفسي ، وراحة حلمي ، وزاد حياتي ، ومادة روحي (١) ؟

وقوله عنه لابن سعدان : أخذ بيدي ، ونظر في معاشي ونشطتي وبشرني ، ورعى عهدي ، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ، وقلدني بها القلادة الحسنى ، وشملني بهذه الخدمة ، وأذاقني حلاوة هذه المزية ، وأوجهني عند نظرائي (٢) .

وقال في مقدمة رسالته العلوم يخاطب أهل فارس :

لم أرد بلادكم من العراق مباهايا لكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعنا فيكم ، ولا تأخرت منكم متطاولا عليكم ، ولا تتبعتم مساويكم شامتا بكم ، بل وردت مستقيدا ومفيدا ، ومباحثا ومستريدا .

فما هذا الذي بلغني عن بعضكم ، على حسن توفري على صغيركم وكبيركم ؟ أما إنه لو أنصف لعلم ، أني إلى تسميحه أحوج مني إلى تصفيحه ، وهو بمجاملته أسعد مني بمجادلته ، وأنا لإحسانه أشكر مني لامتحانه (٣) . . .

وهو يصرح بأن عزة النفس حسنة ، إلا أنها صعبة ، مالم تعتمد على مال يحددها .

قال لصديقه أبي الوفاء المهندس .

« المسكينة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة ، والدنيا حلوة خضرة ، وعذبة

(١) الإمتاع ١/١١

(٢) الإمتاع ١/٥٠

(٣) رسالة العلوم ٢٠١ ملهقة بالصدقة والصدق

نفسرة ... ولا بد من فتى يعين على الدهر ، ويعنى عن كرام الناس ، فضلا عن
لثامهم ، وبذلك يعود الصبر ... والعزلة محمودة ، إلا أنها محتاجة إلى الكفاية ،
والقناعة مزية^(١) (خبرة لذينة الطعم) فكفة ولكنها فقيرة إلى البسطة ، وصيانته
النفس حسنة ، إلا أنها كلفة محرجة ، إن لم تكن لها أداة تجيدها وفاشية
(مال كثير) تفسدها^(٢) .

ويتحدث في كتاب المحاضرات أنه قصد هو والنصيبى رجلا من أهل اليسار
الكرماء ، فلم تيسر لهما ملاقاته إلا في المرة الخامسة عشرة ، لكنه كان في هذه
المرة مشغولا بعزاء فلم يعرفهما ، ولم يجيدا سبيلا للاتصال به . وهم النصيبى
ألا يعود ، فحسن له العودة أبو حيان . ثم قصده بعد ذلك أكثر من عشرين
مرة ، حتى مل النصيبى ، وعزم على طرح الرجاء في ذلك الرجل^(٣) .

على أنه كان في بعض الأوقات يستسلم إلى اليأس من الناس ، ويستشعر
الغنى عما في أيديهم ، ويدعو الله أن يصون وجهه عن الحاجة إليهم ،
والطلب منهم .

فقد ختم رسالة المعلوم بقوله :

أستخلف الله منكم وعليكم ، وأستغفره لى ولكم ؛ إنه غفور رحيم ،
منوح كريم .

اللهم صن وجهنا باليسار ، ولا تبتذلنا الإقتار ، فنستزق أهل رزقك ،
ونسأل شرار خلقك ، فنبتلى بحمد من أعطى وذم من منع ، وأنت من دونهم

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٣

(٢) معجم الأدباء ١٥/ ٤٩

ولى الإعطاء ، وببذك خزائن الأرض والسماء ، ياذا الجلال والإكرام^(١) .

وحسد القانع المستغنى عن عطاء الناس ، الذى لم يضطر إلى شكوى لثيم
أو مدح كريم . قال فى كتاب مثالب الوزيرين :

وإني لأحسد الذى يقول :

أُعْذْتُ خَمْسِينَ حَوْلًا مَاعَلَى يَدِي لِأَجْنَبِي وَلَا فَضْلٌ لِيْذَى رَحِمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا قَدْ قَنَيْتُمْنِي فَلَا أَشْكُو لثِيْمًا وَلَا أَطْرِي أَخَاكَرِيمٍ
لَأَنِّي كُنْتُ أَتَمْنَى أَنْ أَكُونَهُ ، وَلَسَكُنَ الْمَجْزُ غَالِبًا ، لِأَنَّهُ مَبْذُورٌ فِي الطَّيْنَةِ .
ولقد أحسن الآخر حين قال :

صَبَّحْتُ الْمُسْدِرَ فِي الضَّرَاعَةِ . إِنْ لَوْ قَنَيْتُمْنَا بِقَسَمِنَا لَسَكَفَانَا

مَالَنَا نَمْسِيْدُ الْعِبَادَةَ إِذَا كَانَ إِلَى اللَّهِ فَقَرْنَا وَغَدَانَا^(٢)

ومن هنا تعلم أنه كان طامسة إلى المال ، توافا إلى أن ينال من عطاء الأغنياء
ما يكفل له بمجوحة الميش ، فلما حرموه سلبط عليهم لسانه تارة وقله تارة ،
ونظر إلى الناس جميعا نظرة الحاقذ الخائق .

ولقد كان فى غفسية عن ذلك كله ، لو أنه قنع بما تدره عليه الوراقة والنسخ ،
وانصرف إلى العلم والأدب على أنهما غاية لاوسيلة .

وهو إلى هذا غفّل فى معاملة الوزراء ، ضميغ الخبرة بما يحتاج إليه
مخالطهم من السياسة واللباقة والدهاء ، كما بينا فى صلته بابن عباد وابن سمدان .
لهذا ضاق بالإقامة فى رحاب ابن العميد وابن عباد وابن سمدان .

(١) المعلوم ٢٠٨ ماجة بالصدقة والصدى

(٢) معجم الأدباء ٨/١٥ :

وهو يذكر ما قاله صديقه أبو الوفاء المهندس ، فنجد فيه وصفه بالغرارة
والبلاهة والغرور وتجاوز الحد .

سجّل أبو حيان أن صديقه أبا الوفاء قال له : أفسكان من حق عليك أنك
تخلو بالوزير — أدام الله أيامه — ليالى متتابعة ومختلفة ، فتحدثه بما تحب
وتريد ، وتلقى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقة بمد الرقة . ولملك
في عرض ذلك تمدو طورك بالتشدد وتجاوز حدك بالاستحقار ، وتتطاول
إلى ما ليس لك ، وتغسل في نفسك ، وتلسى زلة العالم ، وسقطه المتحرى ،
وخجلة الواثق .

هذا وأنت غر لاهيئة لك في لقاء الكبراء ومحاوره الوزراء .

وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ، وإلى مران سوى مرانك ،
ولبسة لا تشبه لبستك ...

والمعجب أنك مع هذه الخلّة — الميب والنقص — تظن أنها مطوية
عنى ، وخافية دونى ، وأنها قد بلغت الغاية ، وادع القلب ، وملكت المسكنة
ثانى الحنان . وقد انقطعت حاجتك عنى وعن هو دونى ، ووقع العنى عن
جأى وكلامى ولطفى وتوصيلى . وجهات أن من قدر على وصولك ، يقدر على
فصولك — خروجك من عند الوزير — وأن من صمد بك حين أراد ،
ينزل بك إذا شاء ، وأن من يحسن فلا يشكر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى
يعذر .

وبعد ، فما أطيل . ولعل لهب الموجدة يزداد ، ولسان الغيظ يغسلو ،
وطباع الإنسان تحمّس ، والندم على ما أسلفت من الجليل يتضاعف ، ولست

فَأَتَتْ أَوَّلَ مَنْ بُرِّهَ فَمَقَتْ ، وَلَا أَنَا أَوَّلَ مَنْ مُجِرِي فَتَقَنَّ (١) ، وَهَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، وَآخِرُ كَلَامِي مَعَكَ ، وَفَاتِحَةُ بَأْسِي مِنْكَ ... إِلَّا أَنْ تُطْلِمَنِي طَلْعَ جَمِيعِ مَا تَحَاوَرْنَا وَتَجَاوَزْنَا بِهَا مُدْتَخَبَ الْحَدِيثِ عَلَيْهِ ، وَتَصْرِفُنَا فِي هَزْلِهِ وَجِدِّهِ ، وَخَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، وَطَبِيبِهِ وَخَبِيثِهِ ، وَبَادِيهِ وَمَكْتُومِهِ ، حَتَّى كَأَنِّي كُنْتُ شَاهِدًا مَعَكُمْ ، وَرَقِيْبًا عَلَيْكُمْ ، أَوْ مُتَوَسِّطًا بَيْنَكُمْ .

وَمَتَى لَمْ تَفْعَلْ هَذَا فَانْتَظِرْ عُقُوبَتِي اسْتِيْحَاشِي مِنْكَ ، وَتَوَقَّعْ قَلَّةَ غَفُورِي عَنْكَ ، وَكَأَنِّي بِكَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ حَرًّا أَنْ حَيَّرَانِ يَا أَبَا حَيَّانَ ، نَأْ كُلَّ إِصْبَعِكَ أَسْفَا ، وَتَزْدَرِدُ رِبْقَتَكَ لَهْفًا ، عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْحَوِطَةِ لِنَفْسِكَ ، وَالنَّظَرِ فِي يَوْمِكَ لِنَفْسِكَ ، وَالْأَخْذِ بِالْوَثِيقَةِ فِي أَمْرِكَ (٢) .

— ٦ —

كَانَ شَدِيدَ الْخَوْفِ ، ضَعِيفَ الْمَزِيْمَةِ ، كَثِيرَ الْهَيْبَةِ ، وَمِنْ هُنَا مَلَّ الْوَرَاةُ وَالنَّسَخُ ، وَتَطْلُعُ إِلَى كَسْبِ أَيْسَرٍ وَأَسْهَلٍ ، وَلَمْ يَتَّجِهْ إِلَى الْإِرْتِاقِ مِنْ عَمَلِ آخِرٍ يَشْعُرُ فِيهِ بِالْحُرِّيَةِ وَالْكَرَامَةِ ، عَلَى كَثَرَةِ مَا مُنِيَ بِهِ مِنْ تَصْنُوعِ الْأَمَلِ .

سَأَلَهُ الْوَزِيرُ ابْنَ سَعْدَانَ : لِمَ لَا تَدْخُلُ صَاحِبَ دِيْوَانٍ ، وَلَمْ تَرْضَ لِنَفْسِكَ بِهَذَا اللَّبُوسِ ؟

فَقَالَ : أَنَا رَجُلٌ مُحِبٌّ السَّلَامَةِ غَالِبٌ عَلَى ، وَالْقَنَاعَةِ بِالطَّغِيفِ مَحْبُوبَةٌ عِنْدِي .

فَقَالَ الْوَزِيرُ : كُنْتُمْ هُنَا الْكَسَلُ بِحُبِّ السَّلَامَةِ ، وَعَنِ الْفُسْؤُولَةِ بِالرَّضَا

بِالْيَسِيرِ .

(١) نَقِ الضَّفْدِيعِ : سَاحٍ . وَالْمُرَادُ هُنَا التَّجَدُّدُ بِمَا أُسْدَاهُ مِنَ النَّوْمِ وَمَا يَلْقَاهُ مِنَ الْكَفَرَانِ

(٢) الْإِمْتِنَاعُ وَالْمُؤَالَسَةُ ١/٥

— ٨٤ —

فقال أبو حيان : إذا كنت لا أصل إلى السلامة إلا بالفُسُولة ، ولا أنطمح
الراحة إلا بالكسل ، فرحبا بهما ^(١) .

— ٧ —

وقد أسرف في التسيخط والشكوى ، وذم أهل زمانه ، وعابهم بنقص الدين
والبخل وضمف المروءة ^(٢) .
من ذلك قوله :

« فقد أصبحنا في هذه الدار — الدنيا — وكأننا هي قاع أمّلس ، أو أثر
أخرس ، لم يبق من يُرضى هَديهِ ، أو يقتبس علمه ، أو يخطب مُعرفه ،
أم يُقتفى جوده ، أو يستفاد لفظه ... وما ذاك إلا لنَمَلِ القلوب ، ودَخَلَ
الأعناق ، وتخلوة الدين ، وغلبة القِيحة ، وسقوط الهيبة ، والتبجح بالفحشاء
والنكر ^(٣) » .

وبنه قوله في مقدمة رسالة الصداقة والصديق :
ومن العجيب والبدیع أنا كتبنا هذه الحروف ، على ما في النفس من الحرق
والأسف والحسرة والغیظ والكمد والوَمَد ^(٤) .

وكانی بنیرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها ، وأمرّ نقده عليها ، وأنكر على
التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ، لأنك تَبْسُط من العذر
مالا يجود به سواك .

وذاك لعلك بحالی ، وأطّاعك على دِخْلتي ، رسمم راى على هذا الإنفاض.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٦/١ — ١٨
(٤) الومد : الغضب

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٠٤/١
(٣) المقابسات ١١٧

والعَوَزُ الَّذِي نَقَضَا قَوَّتِي ، وَنَكَلْنَا مَرَّتِي ^(١) ، وَأَفْسَدَا حَيَاتِي ، وَقَرَنَانِي
بِالْأَسَى ، وَحَجَبَانِي عَنِ الْأَسَى ^(٢) ، لِأَنِّي فَقَدْتُ كُلَّ مَوْثِقٍ وَمُصَاحِبٍ ، وَمُرَافِقٍ
مَشْفِقٍ . وَاللَّهِ لَرُبَّمَا سَلَيْتُ فِي الْجَامِعِ فَلَا أَرَى إِلَى جَنْبِي مَنْ يَصِلُنِي . فَإِنْ اتَّفَقَ
فَبِقَسَالٍ أَوْ عَمْسَارٍ أَوْ نَدَافٍ أَوْ نَعْتَابٍ ، وَمَنْ إِذَا وَقَفَ إِلَى جَانِبِي أَسَدَرَنِي ^(٣)
بِمُسْنَانِهِ ، وَأَسْكُرَنِي بِنَسْنَانِهِ . فَقَدْ أَمْسَيْتُ غَرِيبُ الْحَالِ ، غَرِيبُ اللَّفْظِ ، غَرِيبُ
النَّحْلَةِ ، غَرِيبُ الْخَلْقِ ، مُسْتَأْنَسًا بِالْوَحْشَةِ ، قَانِمًا بِالْوَحْدَةِ ، مَمْتَادًا لِلصَّمْتِ ،
مَلَاذِمًا لِلْحَيَرَةِ ، مُحْتَمِلًا لِلْأَذَى ، يَأْتِسَا مِنْ جَمِيعٍ مَنْ تَرَى ، مُتَوَقِّعًا لِمَا لَا بَدَّ مِنْ
حُلُولِهِ . فَيُشْمِسُ الْعَمْرَ عَلَى شِفَا ، وَمَاءَ الْحَيَاةِ إِلَى نَضُوبٍ ، وَتَجْهَمُ الْعَيْشُ إِلَى أَفُولٍ ،
وَيُظِلُّ التَّلَبُّثُ إِلَى مُفْلُوصٍ ^(٤) .

وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ (الْمَحَاضِرَاتِ) أَلُوَانًا مِنْ بُؤْسِ الْأَدْبَاءِ وَشَكَايَاتِهِمْ ، مِنْهَا
مَا أَنْشَدَهُ إِيَّاهُ أَبُو بَكْرٍ الْقُرْمَسِيُّ الْفَيْلَسُوفُ ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الضُّرِّ وَالْفَاقَةِ
وَمُقَاسَاةِ الشَّدَةِ وَالْإِضَاقَةِ بِمَنْزِلَةِ عَظِيمَةٍ ، وَنَقَلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَصْفَهُ لِنَحْوِهِ بِقَوْلِهِ :
مَا ظَلَمْتُ أَنْ الدُّنْيَا وَنَكِدَهَا تَبْلُغُ مِنْ إِنْسَانٍ مَا يَبْلُغُ مِنِّي ، إِنْ قَصِدْتُ دَجَلَةً لَأَغْتَسِلَ
مِنْهَا نَعَصَبَ مَآوِهَا ، وَإِنْ خَرَجْتُ إِلَى الْقَفَارِ لَأَتِيَهُمْ بِالصَّعِيدِ عَادَ صَالِدًا أَمْلَسُ ،
ثُمَّ أَنْشَدَهُ قَصِيدَةً لِلْعَطْوَى تَصُورُ الْبُؤْسَ وَالنَّحْسَ ، سَجَّاهَا أَبُو حَيَّانٍ .

ثُمَّ خَتَمَ أَبُو حَيَّانٍ حَدِيثَهُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ بِقَوْلِهِ : مَا أَعْرِفُ لَكَ شَرِيكًَا فِيمَا أَنْتَ
عَلَيْهِ ، وَتَتَقَابَلُ فِيهِ ، وَتُقَاسِيهِ ، سِوَايَ . وَلَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَى الْحَرْفِ (الْحَرَمَانِ)
وَتَمَسَّكَنِي مَنِي نَكِدَ الزَّمَانِ ، إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا أُسْتَرْزَقُ مَعَ صَحَّةٍ نَقَلِي ، وَتَقْيِيدِ
خَطِي ، وَتَرْوِيقِ نَسْنَخِي وَسَلَامَتِهِ مِنَ التَّصْحِيفِ وَالتَّحْرِيفِ ، بِمَثَلِ مَا يُسْتَرْزَقُ

(١) قُوَّةُ الْخَلْقِ وَشِدَّتُهُ

(٢) الْأَسَى : بِفَتْحِ الْمُهْمَزِ الْحَزَنُ . وَالْأَسَى يُضَمُّ الْمُهْمَزُ جَمْعُ أَسْوَةٍ وَهِيَ مَا يَتَصَبَّرُ بِهِ الْحَزِينُ

(٣) أَسَدَرَنِي : ضَايَقَنِي

(٤) الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ ٦

البليد الذى يَنْسَخُ النَّسَخَ (يزيل المكتوب) وَيَنْسَخُ الْأَصْلَ والفرع -
وقصدت ابن عباد بأمل فسيح وصدر رحيب ، تقدم إلى رسائله في ثلاثين مجلدة ،
على أن أنسخها له . فقلت : نسخ مثله يأتى على العمر والبصر - والوراقة كانت
موجودة ببغداد - فأخذ في نفسه على من ذلك ، وما فزتُ بظائل من جهته «^(١) .

وقد تنبه مسكويه إلى أن أبا حيان كثير الشكوى ، ونصحه بالإفلاع عن
شكاياته من الزمان والخلان في قوله : « قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها ،
في رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ،
فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم . فانظر - حفظك الله - إلى
كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسلى ، فلممر أبيك إنما
تشكو إلى شاك ، وتبكي على باك ... وبعد فإنى أرى لك إذا أحببت معايشة
الناس ومخالطتهم أن تسامح أخاك ... ولا تعود عشيرك وجليسك استماع شكواك .
استمد بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملابسسه ، واستمن بالله
يعذك ، أو استسكفه يكفك »^(٢) ..

ويتبين لنا من الأقوال أبا حيان وأفعاله أنه رام العلم والأدب وسيلة لا غاية ،
فأراد بأدبه أن يفتنى ، وأراد بأدبه أن يكون وجيها بين الناس ، فلما يئس من
هذا وذالك أحرق كتبه ، غير آسف عليها ، ولا نادم على ما فعل ، كما سنبين .

وهذا واضح في كتابه لابن العميد الذى قدمنا فقرات منه .

وواضح في ثنائه على أبى الوفاء المهندس لأنه أوصله بالوزير ابن سعدان

بقوله : « وشملني بهذه الخدمة ، وأذاقني حلاوة هذه المزية ، وأوجهني عند نظرائي »^(١) .

وكذلك في قوله إنه أحرق كتبه لقلّة جدواها ، وضنا بها على من لا يعرف قدرها بمد موتها ، ولأنّها لم تنل المثالة والرياسة بين الناس^(٢) .
وفي قوله :

هكذا حفظت عن أئمة هذا الشأن ، ومالي منه إلا حظ الرواية إن وقعت موقعها منك ، وحلت محلها عندك . وإن تسكن الأخرى فما أقدرك على رد ما أروى ، وإفساد ما أقول ، حتى يصير ما جمعته ونقلته وكددت نفسي فيه خاملا في عينك ، ومهين القدر بحكمك . وغير هذا أجل مطبوع على الخير ، ومنذوّ بالأدب ، وناشئ مع البر ، وجار على عرق الطهارة^(٣) .

وأعلن في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) زهده في العلم ، لأنه مشغول بما هو أهم منه ، وهو طلب القوت « على أن الزهد في هذا الشأن قد وضع عنا وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه ، والتسنى به ، والتوفر عليه ، وتقديمه على ما هو أهم منه ، أهني طلب القوت الذي ليس إليه سبيل إلا بيع الدين ، وإخلاق الروعة ، وإراقة ماء الوجه ، وكد البدن ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ومضّ الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان^(٤) » .

ومن عجب أن أبا حيان جرّح أكثر معاصريه ، حتى الذين وصلته بهم صلات علم أو مودة .

(٢) معجم الأدباء ١٥/١٨

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٢/٤٣ ؛

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٠

(٣) البصائر والذخائر ١٣٥

فهل كان متجنبيا عليهم حينما جرحهم ؟
أو كان منصفاً في حكمه ، يذكر محاسنهم ومساوئهم ؟
كلا الأمرين محتمل . وإن كان الخلق العام لأبي حيان يرجح أنه كان إذا
غضب نسي المودة ، واستل قلمه للثلب .

من ذلك أنه كان وثيق الصلة بابن مسكويه^(١) ، ورأسله في أسئلة شتى ،
هي التي جمعها وجم إجاباتها في كتاب (الهوامل والشوامل) . وكان عظيم
الثقة في علمه ، بدليل قوله في رسالته إليه : « وقد جهزت المسألة إليك ، وأنت
الدخِر لغريب العلم ، ومكتون الحكمة . فإن تفضلت بالجواب ، وإلا عرضتُ
عليك ما قلتُ للسائل ، ورويتُ ما دار بيني وبين المجادل ، فإن كان سديداً
عزفتنيهِ ، وإن كان ضعيفاً نصحتني فيه ، فالعلم بعيد الساحل ، عميق النور ،
شديد الموج »^(٢) .

لكنه عاد بعد ذلك فمدح فيه ، إذ اتهمه بالعمى وبالبخل ، وتعضية الوقت
في طلب الكيمياء ، في قوله :

أما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعمي بين أرباب ، لأنه شاذ ... ولقد
قطن العامري^(٣) الرسى خمس سنين ، ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ
مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد . ولقد

(١) كان خازناً على مكتبة ابن العميد ثم على خزانة كتب عضد الدولة البويهى . ثم وزر
لبناه الدولة البويهى

(٢) الهوامل والشوامل ٣١٥

(٣) أبو الحسن محمد بن يوسف العامري فيلسوف معاصر لابن سينا ، وكانت بينهما
مباحثات في الفلسفة ، كان متبحراً في الفلسفة اليونانية مكباً على كتب أرسطو ، وله على
بعضها شرح . وقد اتصل بابن العميد وقرأ معه عدة كتب . توفي سنة ٣٨٠

تجبر على هذا التواني الصواب والمعقّم ، ومضغ بغمه حظّل الذمّامة في نفسه ،
وسم بأذنه قوارع الملامة من أسدقائه ، حين لم ينفع ذلك كله .

وبعد فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ ... مع كلفه بالمسكيميا ، واحتراقه
في البخل بالذاني والقيراط والكسرة والخرفة . نعوذ بالله من مدح
الجدود باللسان ، وإيثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ، ومفارقته
بالعمل » (١) .

كذلك فعل مع ابن العميد ، إذ كتب له رسالة قبل أن يتصل به ، أسرف
فيها في الثناء والخنوع والاستجداء ، وبالغ في ثنائه وتغالي (٢) . ثم انقلب عليه ،
وذمه في كتاب مثالب الوزيرين .

وصنع هذا السنيح أو ما يشبهه مع المدلجي ، الذي اتصل به وألف له
كتاب المحاضرات ، واعترف بأن المدلجي كافأه مكافأة مضاعفة . لكنه قال فيه
فيما بعد : « فأنجزني ما وعد ، ووفى بما شرط ، وكان ينفق عليه سوق العلم ،
مع جنون كان يمتريه ، ويكتسب في أكثر أوقاته فيه » (٣) .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣٥/١

(٢) معجم الأدباء ٣٧/١٥ — ٤٤

(٣) معجم الأدباء ١٤/١٥ — ١٦

دينه

هذا الرجل الذي لم يجد من رفاهة الحياة ما يلائم علمه وأدبه ، ولم يلق من رعاية الوزراء والأسماء في عصره بعض ما لقي من هم أقل منه علماً وأدباً ، ففضى حياته يائساً ناقماً ، هذا الرجل قد اتهم في عقيدته ، وهي تهمة أشد إيلاماً من البؤس ، وأقسى نكالا من الفقر ؛ لأنها تبغضه إلى الخاصة وإلى العامة ، وتلقى على إنتاجه غباراً كثيفاً من الشك ، وتسكاد تطوح بمكانته الأدبية والعلمية ، في عصر لم يكن يحتمل من الزندقة والإلحاد ما يوصف بأنه زندقة وإلحاد ، وإن كان بريثا .

اتهمهم بالزندقة :

ربما كان أول من اتهمه بالزندقة الكاتب اللغوي الأديب ابن فارس المتوفى في القرن الرابع ، في كتابه الفريدة والخريدة ، فقد نقل عنه قوله : كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف ، والمجاهرة بالبهتان ، تعرض لأُمور جسام من القدرح في الشريعة والقول بالتعطيل .

ولقد وقف سيدنا صاحب ابن عباد كافي الكفاة على بعض ما كان يُدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقطله ، فهرب والتجأ إلى أهدائه ، ونفق عليهم بزخرفه وإفسكه ، ثم عثروا على جميع دخلته ، وسوء عقيدته ، وما يبطله من الإلحاد ، ويرومه في الإسلام من الفساد ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبايح ، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى ، فاستتر منه ، ومات في الاستتار ، وأراح الله منه ، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزبة (١) .

ثم جاء ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) فقال : زنادقة الإسلام ثلاثة :
ابن الراوندي والتوحيدى وأبو العلاء الممرى . وشرهم على الإسلام أبو حيان ،
لأنهما صرّحا وهو مَجْشَمَجٌ ، ولم يصرح ^(١) .

ثم ردد الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) هذه التهمة ، ونقل ما ذكره ابن فارس
وابن الجوزي ، وزاد عليه قوله إن أبا حيان كان عدواً لله خبيثاً ، سيئ الاعتقاد ^(٢)
وجرت دائرة المعارف على أنه نفي لزندقته . قال مرجليوث :

« نفاه المهلبى المتوفى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣) من بغداد — وكان يعيش فيها
من الكتابة — لزندقته في آرائه التي أوردتها في مصنفات له فُتِّحت ^(٣) .

ووافق هؤلاء على النفي الأستاذ محمد كرد علي ، فقال إن صاحب اتهم
التوحيدى بالزندقة ، ففر منه ، وطلبه الوزير المهلبى ليقْتله ، فهرب إلى ديار بكر ^(٤)

٢ — ولكن علماء آخرين شهدوا له بسلامة العقيدة ، وصحة الدين .

فهو في رأى ياقوت صوفي السمّ والهيئة ، متمبّد ، والناس على ثقة من
دينه ^(٥) .

وابن النجار يصفه بأنه كان فقيراً صابراً متديناً صحيح العقيدة ^(٦) .

والسبكي يدافع عنه بقوله : « لم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان .
ما يوجب الوقعة فيه . ووقفت على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلا ما يدل على

(١) بغية الرعاة للسيوطى ٣٤٨ وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٤

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي ٣/٣٥٥ وطبقات الشافعية ٢/٤

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١/٣٣٣

(٤) أمراء البيان ٢/٤٩٦

(٥) معجم الأدباء ١٥/٥ (٦) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٤

أنه كان قوى النفس ، مزدرياً بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل : وسئل الوالد — رحمه الله — عنه فأجاب بقریب مما أقول ^(١) .

وقد أرجع السبكي حملة الذهبى على أبى حيان إلى محاكاته لما قاله ابن فارس وإلى ما قاله ابن الجوزى ، وإلى أمر ثالث هو بغضه الشديد للمتصوفة ^(٢) .

ولقد كان أبو حيان ضوئياً ، بل إنه عند الفرس علم من أعلام المتصوفة . قال عنه أبو العباس أحمد زركوب : « إنه الإمام الموحّد ، العالم الواسع العلم ، ليس له شبيهه فى المكاشفات الإلهية ، والدراية بالتوحيد » ^(٣) .

٣ — ولنا على اتهامه بالزندقة ، وزعمهم أنه نفى بسببها عدة ردود :

(١) المفهوم من كلام ابن فارس أن الصاحب ابن عباد طلبه ليقّتلّه ، ففر منه ، ثم تعقبه الوزير المهلبى ^(٤) ، فاستتر منه حتى مات فى الاستتار . وهذا كلام تعوزه الصحة ، لأن أبا حيان — كما بينا فى صلته بابن عباد — تركه سنة ٣٧٠ هـ والوزير المهلبى توفى سنة ٣٥٢ هـ ^(٥) فكيف يتفق هذا ؟ لقد اتصل أبو حيان بالصاحب ثم تركه بعد ثمانية عشر عاماً من وفاة الوزير المهلبى الذى قيل إنه تعقبه ليقّتلّه .

(ب) لم يشر أبو حيان — على دقته فى وصف الأشخاص والأحوال ولا سيما حالته — إلى أن ابن عباد فكر فى قتله ، أو أوعز بحبسه ، ولو أن شيئاً

(١) طبقات الشافعية ٢/٤ (٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٤

(٣) شيراز نامه ١٠٨ (٤) الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون من ولد المهلب بن أبى صفرة . كان كاتب معز الدولة البويهى ثم وزيره . وكان أديباً ظريفاً . توفى سنة ٣٥٢ هـ (فوات الوفيات ١٣١/١)

(٥) فوات الوفيات ١٣١/١

من هذا حدث لذكره ، على عادته في تفصيل الأحداث ، والتشنيع على ابن عباد ،
ووصف ما لقي من حرمان وخيبة في صلته به .

(ج) يحملنا على الشك فيما زعمه ابن فارس من نسبة الزندقة إلى أبي حيان ،
ومن نسبة التفكير في قتل ابن عباد له ، أن ابن فارس كان أستاذاً لابن عباد
قبل أن يلي الوزارة ، وكان صديقاً له لما تولاهما^(١) . وكان أستاذاً لأبي الفتح
ابن العميد^(٢) . وقد هجا أبو حيان ابن عباد وابن العميد ، فمن المرجح أن
ابن فارس أراد أن يشوه سمعته ، ويأثر منه ، فألصق به تهمة الزندقة ، وأراد أن
ينسب إلى ابن عباد الغيرة على الدين ، فزعم أنه همّ بقتل أبي حيان ، لكنه
هرب منه .

(د) كان ابن فارس معاصراً لأبي حيان ، وقد ذمه أبو حيان ذمّاً شنيعاً ،
وتنقصه في مجلس ابن سمدان ، بقوله : « إنه شيخ فيه محاسن ومساوئ » ، إلا أن
الرجحان لما يذم به ، لا لما يحمده عليه . فمن ذلك أن له خبرة بالتصوف ، وهناك
أيضاً قسط من العلم بأوائل الهندسة ، وتشبه بأصحاب البلاغة ، إلا أن هذا كله
مردود بالرهونة والسكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة ...^(٣)

(هـ) ابن فارس الذي يسند إليه اتهام أبي حيان بالزندقة والموت في الاستتار
قد مات قبل أبي حيان . وسواء أكانت وفاة ابن فارس سنة ٣٦٠ أو ٣٦٩ هـ
أو ٣٧٥ هـ أو ٣٩٠ هـ أو ٣٩٥ هـ^(٤) فإنها كانت قبل وفاة أبي حيان .

(١) وفیات الأعيان ٧٥/١ ومعجم الأدباء ٨٣/٤

(٢) معجم الأدباء ٢٣١/٦ ، و ٢٣٢/٨ ، ٢٩٢/١٤

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٠٥/٣

(٤) معجم الأدباء وهامشه ٨٠/٤ ورجح ياقوت أنه مات بعد ٣٩١ هـ

فكيف يقرر وفاة شخص لم يمت بعد؟
وإذا أخذنا بشق رأيه وهو الاتهام بالزندقة ، وذهبنا إلى أن الشق الثاني
مدخول عليه ، فإن اتهامه بالتجيز لابن عباد وابن العميد مازال قائماً ، يقدمح في
طعنه أبا حيان .

على أننا لا نستبعد أن يكون خصوم أبي حيان هم الذين فعلوا ذلك ، ولكنهم
أسندوه إلى ابن فارس ، ليزيدوه قبولاً وتشبيهاً في نفوس سامعيه .
(و) ابن الجوزي — كما ذكر السبكي — متعصب على الصوفية ، مبغض
لهم ، لهذا زاد من عنده قوله « وأشدّهم على الإسلام أبو حيان ، لأنه مجمع
ولم يصرح » .

وقد وصفه ياقوت بأنه كثير التخليط ، ولهذا لا يعتمد على ما تفرد به (١) .

(ز) إذا وازنا بين أبي حيان وابن الراوندي وأبي العلاء المروزي لم نجد
تشابهاً يبيح لابن الجوزي أن يجعله أشد الثلاثة ضرراً بالإسلام .

أما ابن الراوندي فلا جدال في زندقته وكفره ، لأنه زعم أن في كلام أئمتنا
ابن سفي ما هو أحسن من بعض القرآن ، وادعى أن القرآن غير معجز ، بأن
المسلمين احتجوا بالنبوة عليهم بالقرآن الذي تحدى به النبي ، فلم يقدر العرب على
معارضته ، فيقال لهم : لو ادعى مدّح لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في
القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون
عن أن يأتوا بمثل كتابه ، لسكانت نبوته تثبت (٢) .

(١) مجمع الأدباء ١٣/١٧

(٢) تاريخ أبي الفدا ٢/٢٩٤ وهذه حجة تافهة ساقطة لأنه قد أتى بعد إقليدس من
برع أكثر منه وزاد عليه . ولا يزال العلماء يأتون كل يوم بجديد حتى ليعد كتاب إقليدس
لا شيء بالنسبة لما يكتبون ، أما القرآن فقد مضت مئات السنين ولا يزال المعجزة الخالدة وسيدتي
كذلك أبداً .

وأما أبو الملاء فقد اتهم بالإلحاد ، لبعض آرائه ، ولما قيل إنه عارض القرآن بكتابه الفصول والغايات ، على نسق السور والآيات .

وإن كان مظلوماً في اتهامه بالمعارضة ، لأن كتابه لا يشير إلى ذلك .
وليس في كلام أبي حيان ما ينبغي عن زندقة أو إلحاد .

(ح) بل إن في كلام أبي حيان ما ينقض دعوى خصومه نقضاً لا يبق ولا يذر .

فقد كان يغار على الدين منذ حداثة .

ذكر رأياً لأبي سعيد البسطامي ، ثم عقب عليه بقوله : وكان شديد التهور عظيم المعرفة ، ولم أجد من أنكره من أحد حضر ، من أصحابه ومن غير أصحابه .
وكنيت حينئذ غريباً حديث السن ، فوقد اتى الحمية لله ورسوله عند جهله (١) .

وفي مقدمة البصائر والذخائر دعاء مؤمن متصوف .

وفيه بعد ذلك إقرار صادق بجلال القرآن وإحجازه : « كتاب الله عز وجل ،
الذي حارت العقول الناصمة في رصفه ، وكَلَّتْ الألسن البارة عن وصفه ،
لأنه الطمع بظاهره في نفسه ، والمتنع في باطنه بنفسه ، الذي يافهمه إياك
إليك ، والعالى بأسراره غيوبه عليك ، لا يُطار بحواشيه ، ولا يُتمَلُّ من تلاوته ،
ولا يُحَسُّ بإخلاق جدته ، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام ، ظاهره أنيق ،
وباطنه عميق ، ظاهره حكيم ، وباطنه علم » .

وفيه تمجيد لأحاديث الرسول : فإنها الشرك (وسط الطريق الواضح)

الواضح ، والنجم اللامح ، والقائد الناصح ، والعلم المنصوب ، والأتم المقصود
والغاية في البيان ، والنهاية في البرهان ، والمفزع عند الخصام ، والقودة
لجميع الأنام »^(١) .

وفيه بعد هذا تصوف وحض على الثقة في الله وحده^(٢) .

وفي مقدمة كتابه (الإشارات الإلهية) .

اللهم إنا نسألك ما يُسأل ، لاعن ثقة بيباض وجوهنا عندك ، وأفعالنا
ممعك ، وسوائف إحساننا قبلك ، ولسكن عن ثقة بكرمك القائض ، وطمعا
في رحمتك الواسعة . نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها
إنكار . وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة نسألك
ألا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من أم يكن له هذه الوسيلة إليك . يا حافظ
الأسرار ، ويا مُسهل الأسرار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشئ الأخبار ، ويا مولي
الليل في النهار ، ويا مصفا في الأخبار ، ويا مداري الأشرار ، ويا منقذ الأبرار ،
من النار والعار ، عبد علينا بصفحك عن زلاتنا ، وامنشنا عند تقابع صرعاتنا ،
وحطة حالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن
لأنفسنا ، لأنك أولى بنا . . .

وإذا خفنا منك فأبرح^(٣) خوفنا منك رجائنا فيك ، وإذا غلب علينا يأسنا
منك فتلقه بالأمل فيك . . .

ومن رسالة الإشارات الإلهية :

(٢) المرجع نفسه ١٠

(١) البصائر والذخائر ٧

(٣) أبرح : أزل

حرام على قلب استنار بنور الله. أن يفكر في غير عظمة الله . حرام على
 لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله . حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا
 أن تدنس بشيء من مخالفة الله . حرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن
 تحديق إلى غير الله . حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله أن تظلم إلى غير الله . حرام
 على من لم ير الخبير إلا من الله أن يحدد طمعا في غير الله ... حرام على من
 تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله . حرام على من وقع في فقه الله أن يعبد
 غير الله (١) ...

بالعجب !

لقد اتهم بعض الناس أبا حيان بالزندقة والإلحاد ، ووصفه بعضهم بأنه شر على الإسلام من ابن الراوندى .

وقد تبين لنا بطلان هذا الاتهام ، وأنه تنفيس عن موجددة على الرجل ، أو زُلفى للحكام الذين ثلبهم .

وإننا لنعجب أشد العجب من أن يكون أبو حيان صوفيا وزنديقا فى آن واحد .
أما صوفيته فلا شك فيها .

فقد وصفه ياقوت بأنه شيخ فى الصوفية ، وبأنه صوفى السمى والهيئة^(١)
وعلى السبكى تحامل الذهبى عليه بأن أبا حيان صوفى ، والذهبى يمتنع
الصوفية^(٢) .

ووصفه أبو العباس أحمد زركوب بأنه إمام فى التصوف لا نظير له ، وذكر
أن أبا الحسن بن أحمد بن سألبة شيخ مشايخ الصوفية فى عصره ، رآه فى المنام ،
وسمع منه أن الله غفر له ، فزار قبره فى جمع من مريديه ، وصلى عليه ، وأشار
بوضع لوح على قبره يكتب عليه اسمه^(٣) .

ثم إن أبا حيان نفسه يحددنا بأنه حج فى رفقة من إخوانه المتصوفة سنة ٣٥٤هـ ،

(٢) طبقات الشافعية للسكى ٢/٤

(١) معجم الأدباء ٥/١٥

(٣) شذيرار نامه ١٠٩

ويعصف ما احتملوا في عودتهم إلى بغداد من مشقات جسام كادت تودي بهم^(١).

وهو كان يتزيا بزى المتصوفة ، وينطبع بطابعهم وسمتهم^(٢).

وكان يأنس إليهم ، ويصاحبهم . فقد سأله ابن سمدان عن شخص ، فقال له :
والله الذي لا إله إلا هو ، ما كان يبني وبينه ما يقتضى هذا الأنس والاسترسال ...
وإنما ركنت إليه لرؤيته وتأسومته عند ما رأيته سنة ٣٦٩ هـ^(٣).

وقد عابه أبو الوفاء المهندس بمخالطة الصوفية^(٤).

وله أدعية كثيرة تشع بالتصوف العالى ، منها كتابه الإشارات الإلهية كله .
ومنها قوله :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى
تصلح القلوب ، وتمتق الجيوب ، حتى نتميش فى هذه الدار مصطلحين على خير ،
مؤثرين للتقوى ، طامنين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف الروءى ، آنفين من
ملايسة ما يقدح فى ذات البين ، متزودين للماقبة التى لا بد من الشخوص إليها ،
ولاحمدين الاطلاع عليها ، إنك توتى من تشاء ماتشاء »^(٥).

على أنه اختار شيراز مقاما له ، لأنها عامرة بالصوفية ، ومات بها ، ودفن
بجوار المتصوف ابن عفيف .

بذكر آدم متر أن المتصوف البغدادي قد ذاع فى العالم الإسلامى فى أواخر
القرن الثالث الهجرى « إذ حمل تلاميذ السرى السقطى مذاهب الصوفية

(٢) مجمع الأدباء ٥/١٥

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٥٥/٢

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٥/١ المرقعة : من ملابس الصوفية . التأسومة : نوع من

النعال البالية يلبسه الفقراء

(٢) الصداقة والصديق ٦

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٧/١

البغداديين إلى أنحاء المملكة الإسلامية ، فحملها موسى الأنصارى (المتوفى حوالى ٣٢٠ هـ) إلى خراسان ، والروذبارى (المتوفى ٣٢٢ بالفسطاط) إلى مصر ، وأبو زيد الآدمى (المتوفى عام ٣٤١ هـ) إلى جزيرة العرب .

وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد أبى على محمد بن عبد الوهاب الثقفى (المتوفى ٣٢٨ هـ) وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالى آخر القرن الرابع «^(١) .

— ٢ —

لكن أباحيان — كماداته — لم يتصوف تصوفا عالميا أو شعبيا ، ولم يتصوف تصوف الذين يسمهم (الجنب) وفقدان الإدراك .

لهذا يقول إن الطريقة قد لحقها حيف ، لكثرة الدخلاء فيها ، كما لحق البلاغة لكثرة مدعيها «^(٢) .

وهذا هو السبب فى أنه ليس صاحب مذهب خاص فى التصوف .

ويظهر أنه كان يمزج الفلسفة بالتصوف ، ويجمع بين مذهب النساك والمتصوفة ، ومذهب أهل التفسير والفلسفة ؛ لأننا لا نجد له مذهبا مستقلا فى تصوفه ، ولا مذهبا معيناً فى تفلسفه « فقد عرف كل المذاهب ، وانتقى منها ، وحل على التقليد فى كل منها ، سواء أكان فى الدين أم فى الفلسفة » «^(٣) .

ويجدر بنا أن نعرض لبعض العقائد الكبيرة عند المتصوفة ، ونبين موقف أبى حيان منها .

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ١٨/٢

(٢) رسالة العلوم ٢٠٧ ملحقة بالصدقة والصدى

(٣) أمراء البيان ٢/٤٩٥

١ — غالى بعضهم فى الحالة التى تعتريه ، سواء أفسرناها بأنها دعوى وحدة الوجود ، أم فسرناها بأنها وحدة الشهود .

وتفصيل ذلك أن أهل الورع لم يجدوا فى علم السلام ما يعطى نفوسهم ، فنقروا إلى الله بطريق آخر على أساسه دينى وروحانى ، وقام مذهبهم على أعمال لها أسرارها ، وعلى شيوخ ومُريدين .

وظل المتصوف فى جملة داخلها فى نطاق مذهب أهل السنة ، الذين كانوا من الحكمة بحيث تناضوا عن شطحات الشمرء ، وأصحاب المواجد .

والتصوفة والسنية متفقون فى القول بأنه لا فاعل فى كل شىء إلا الله . غير أن الغلاة من التصوفة زادوا على هذا قولهم إنه لا موجود فى كل شىء إلا الله . فقد روى عن الحسين الحلاج قوله : أنا الحق ، وقوله : ما فى الجبة إلا الله ، وقوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرتة وإذا أبصرتة أبصرتنا ؟

وكلامه هذا صالح لأن يفهم منه معنى وحدة الوجود وبعض التصوفة يؤولها بأنها كلام يقال فى حال الغناء فى الله .

على أنه ينبغى أن نميز بين ما يسمى عندهم وحدة الوجود ، وما يسمى وحدة الشهود . فالأولى مذهب يقول إنه لا موجود إلا الله ، بمعنى أنه لا وجود مستغن بذاته إلا وجود الله ، أما العالم فليس وجوده من ذاته ولا بذاته ولا لذاته ، ولا قوام له بذاته ، وإنما هو شأن من شئون الله . وبعضهم يعبر عنه بأنه فعل من أفعال الله ، ولهذا يقول جمهور الصوفية المحققون إنه ما سُمِّ إلا الله وأسماءه وأفعاله . أما الثانية فهى عندهم حال تستولى على بعض الصوفية ، يفقد صاحبها

التمييز بين نفسه وبين ذات الله ، أو بين المخلوقات وبين الله ، فيرى أن هذه الحوادث هي الله ، وأن الله يخاطبه بها ، فيقول كما قال الحلاج ، وصاحب هذا المشهد يكون في حال كنهه في الرؤيا المنامية ، وفي حال الصحو يفرق بين الخالق والمخلوق ، فيعتقد أن العالم غير الله ، على المعنى المتقدم من أنه شأن من شئونه . ويسمى هذا المقام عندهم مقام الفرق ، وهو مقام السكاملين في نظرهم . وفي حال الفناء والمحو يفقد التمييز بين المخلوق والخالق ، ويرى أن كل شيء هو الله ، وهذا مقام الجمع ^(١) .

ولسنا نجد في كتب أبي حيان شيئاً من هذا كله .

٢ — ظهرت عند بعض الصوفية نزعة إلى التحرر مما في هذه الدنيا حتى الشريعة . يحكي ابن حزم أن « منهم من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ... نموذ بالله من الضلال » ^(٢) . ويذكر أن بعضهم فضل بعض الأولياء على جميع الرسل والأنبياء ^(٣) . ويذكر القشيري في رسالته التي ألفها سنة ٤٣٧ أن أكثر شيوخ الصوفية المحققين قد انقضوا ، وصار المتصوفة يمدون قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ويرفضون التمييز بين الحرام والحلال ، ويستخفون بأداء العبادات ، ويستهنون بالصوم والصلاة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وليس لله عليهم عتب ولا لوم ^(٤) .

ولم يكن أبو حيان يدين بشيء من هذا ، فقد حج في جماعة من إخوانه

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٧٣ ديور

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١٨٨/٤

(٣) المرجع السابق ٢٢٦/٤

(٤) مقدمة الرسالة القشيرية ٢

الصوفية سنة ٣٥٤ هـ^(١) ، فأدى الفريضة . وكان كما وصفه ياقوت يتمبذ ،
والناس على ثقة من دينه^(٢) .

٣ — اشتهر كثير من المتصوفة في القرن الرابع والخامس بمعاشرة المخالفين
ورفقة النساء ، وصحبة الأحداث^(٣) . ولكن أبا حيان لم يخالف هؤلاء ، وكانت
سلاته بالعلماء والأدباء والحكام والمتصوفة .

٤ — غلبت العزوبة على المتصوفة في القرن الرابع ، على الرغم من أن أكثر
الصوفية القدماء كانوا منزوجين^(٤) .

والسبب في إشارهم العزوبة أن تخلو قلوبهم من المشاغل ، وأن يبرءوا من
الشهوات والمعاصي .

وبعضهم تزوج ، لكنهم كانوا في شغل من زوجاتهم وأبنائهم^(٥) . والذي
نعلمه أن أبا حيان لم يتزوج ، لكننا لسنا نعلم الباعث له على العزوبة ، أهو التصوف
أم الإعراض لسبب آخر ؟

وعلى فرض أنه عزف عن الزواج لتصوفه ، فإن هذا لا يسكنى لوصفه
بالتأثر الكبير بمذاهب الصوفية ، ومحاسنهم في عقائدهم ورسومهم محاسبة
كاملة .

٥ -- تنال الصوفية في تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام تغاليا لم
يعرفه سواهم .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٥٥/٢ (٢) معجم الأدباء ١٥/٥

(٣) الرسالة للقسيري ٢٢ — ٢٤

(٤) الرسالة للقسيري ١٦٨ ، ١٧٣ (٥) المعجم للعلوسي ١٩٩

ولكن أبا حيان كان — كسائر المسلمين — يعظم النبي ويمجده في حدود رسالته وبشريته .

من تعالى الحلاج قوله في الطواسين :

أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر ، وأقدم من القديم سوى نور صاحب السكرم .
همته سبقت لهم ، ووجوده سبق القدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم (١) ...

الناموس نمتته ، والشمس ميسدانه ، والنفوس إيوانه ، والمأنوس حيوانه ، والطموس شأنه ، والمدروس هيانه ، والعروس بستانه ، والطموس بنيانه (٢) .

قيل لإبليس : اسجد ، ولأحمد انظر . هذا ما سجد ، وأحمد ما نظر ، ما التفت يمينا ولا شمالا ، ما زاغ البصر وما طغى . أما إبليس فإنه دعا ، لكنه ما رجع إلى حوله ، وأحمد صلى الله عليه وسلم ادعى ، ورجع عن حوله ، بقوله : بك أحول وبك أحول (٣) .

٦ — الصرفية يعقدون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، والأولياء في نظرهم طبقات وأنواع (٤) ، ولهم كرامات لاشك فيها (٥) . وهم يفرقون بينها وبين المعجزات بأن المعجزات للأنبياء ، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين .

(٢) الطواسين ٣٩

(١) الطواسين ١١

(٣) الطواسين ٤١

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٢٣٧/٢

(٥) الرسالة للشيرازي (باب الكرامات)

وقد ذكر الطوسي أفوالهم في صدق السكرامات ، وأورد أمثلة كثيرة لسكراماتهم ، ورد على من أنكروها ^(١) .

أما أبو حيان فلا يمتد في السكرامات ، ولا في الولاية والأولياء بهذا المعنى . يدل على ذلك قوله :

« فأما أصحاب السك ومن عُرف بالعبادة والصلاح ، فقد ادَّعى لهم أن الشُّفْر يُصَيَّر لهم ذهباً ، وشيثاً آخر يُصَيَّر لهم فضة ، وأن الله عز وجل يززل لهم الجبل ، وينزل لهم القَطَر ، وينبت لهم الأرض ، وغير ذلك مما هو كآليات للأنبياء ، وربما يسمَّى كثير من الناس ما يظهر للزُّهاد والعباد من هذا الضرب كرامات ، ولا يسميها معجزات . والحقائق لا تنقلب بالأسماء ، فإن المسمى بالكرامة هو المسمى بالمعجزة الإلهية » ^(٢) .

وهو يرد ما يحدث من أشباه ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ^(٣) .

ويعتقد أن التقوى هي السبيل إلى السكرامة ، إذ يروى ما قاله القاضي أبو حامد المروروزي في أن التقوى هي السبيل إلى السكرامة : « السبب أولى من النسب ، والسبب التقوى ، وبها تظهر السكرامة .

وقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ^(٤) .

٧ -- من أساس التصوف الزهادة في المال والجاه ومتاع الدنيا ، والقناعة النزر الذي يحفظ الروح ، والرضا بشظف العيش ، وضيق اليد .

ولكن أبا حيان — كما قدمنا في أخلاقه ، وكما سنبين بعد — كان ساخطاً

(١) اللع لاطوسي ٣١٥ — ٣٣٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٤٠/٢

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١٥٣/٢ (٤) البصائر والذخائر ١٤٣

على حظه ، وكان متبرما بفقره ، وكان كثير الشكوى من بؤسه ، وكان دائب الاتصال بالوزراء لينال منهم .

٨ — على أن أبا حيان يوافق الصوفية في أنه كان صوفي السميت والهيئته كما وصفه ياقوت . وقد صرح له أبو الوفاء المهندس بأن منظومه وبزته وملابسه لا تؤهله للاتصال بالوزراء .

قال له أبو الوفاء المهندس :

أَتَظُنُّ بِمَهَارَتِكَ — غفلتك — وذهابك في فسولتك — خستك وضعفك وقلة مروءتك — التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأذنياء الأردياء ، أنك تقدر على مثل هذه الحال — يريد قطيعته له وتهديده بالعقاب — وأدام منك على حسن الظن بك « (١) ...

ولنا أن نتخيله رث الهندام ، قصير الذيل ، كما وصف نفسه ابن عبد العزيز السوسي في قوله :

سَلَكْتُ فِي مَسَلِكِ التَّصَوُّفِ تَنَمِّي سَأَ فَكُمُ لِلدِّيُولِ قَطُّسْرُ
سَوَّيْتُ سَجَادَةَ بِيَوْمٍ وَأَحْفَنِي تَسْبَالًا قَدْ كُنْتُ طَوَّاتُ (٢)

(١) الإمتاع والمؤانسة ٧/١

(٢) يتيمة الدهر للشعالي ٢٣٧/٣ تنجيس : تلبيس ومواراة

بؤسه وإغفاله

— ١ —

قضى على أبي حيان أن يعيش بائساً ، خشن المضجع ، نزر المال ، كلما غالب الأيام لينال رغبة من الدنيا غلبته الأيام ، وكلما اتصل بوزير أو كبير ليأنس في رحابه ، ويستمتع برفاة الحياة كما يستمتع من هم دونه ، تنكر له الحظ ، فبدل آماله آلاماً ، وصير ابتسامه غويلاً ونواحا .

وهكذا قضى الرجل حياته .

وهل يتطلب دليلاً على بؤسه أوضح وأقوى من قوله لأبي الوفاء المهندس :
« خلصني من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اكفني مشونة الغداء والمشاء . إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبئيلة الداوية ، والقميص المرقع ؟ إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ ... »

قد أذلي السفر من بلد إلى بلد ، وخذلي الوقوف على باب باب ، ونكسرتني المارفين ، وتباعد عني القريب مني ^(١) .

فلما مات لاحقه الإغفال والإهمال ، حتى إن ياقوتا الحموى عجب من ذلك ، وقال : « لم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ، ولا دججه في ضمن خطاب ، وهذا من العجيب العجيب » ^(٢) .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/٣٣٦

(٢) مجمع الأدباء ٦/١٥

ولقد نستطيع ردَّ بؤسه وتجاهله إلى عدة أسباب :

١ — أولها أخلاقه التي تحدثنا عنها ، وهي في جملتها لم تكن أخلاق رجل يحسن مداخلة الناس ، ومعاشرة الحكام وذوى السلطان .

ولو أنه كان بعيد النظر لعرف أن الناس يتحامونه إذا ما أنسوا منه السخط على من عاشروهم من قبل ، لأنهم يتوقعون أن يكون نصيبهم منه مثل نصيب سابقينهم .

ولو أنه كان حصيفاً لأمسك لسانه عن تناول حاشية أى وزير يتصل به ، لأن حاشية الوزير لا تمجز عن السكيد لمن يتناول عليها .

ولو كان أبوحيان صاحب عزيمة قوية لا تعتمد على نفسه ، ولسكسب المال بكده وعلمه .

٢ — على أنه عادى الخاصة من حكام وعلماء ، كما سبق في وصفه لأعوان ابن سعدان وحاشيته . وكقوله في ابن فارس العالم اللغوى الأديب :

إنه شيخ فيه محاسن ومساوىء ، إلا أن الرجحان لما يُدْمُّ به لا لما يُخْتَمَد عليه ... وهذا كله مردود بالرعونة والمسكر والإبهام والخسة والسكذب والغيبة^(١) .

وكذلك تناول العسلية من العلماء مثل أبى عبد الله الحسين بن على رئيس المتكلمين فى عصره ، وصاحب مؤلفات فى الفقه الكلام .

ومثل أبى عبد الله محمد بن النعمان رئيس الشيعة الإمامية فى الفقه والكلام

والآثار ، وأستاذ الشريف الرضي والشريف المرتضى . ومثل أبي القاسم الداركي^(١) الفقيه الشيعي البغدادي ، ومثل أبي بكر الباقلاني أحد أعلام المتكلمين وأنصار مذهب الأشاعرة ، ومؤلف كتاب إعجاز القرآن^(٢) .

وقد وصف الفقهاء بأن كلامهم مرذول ، لأنهم مروا على فنون الخطأ ، لسوء عنايتهم بلغة فبيهم عليه السلام^(٣) .

٣ — ليس بعيدا عن الصواب أنه نخل في عصره عند العامة ، كما ضرب حقه عند الخاصة .

ذلك بأنه ترفع على العامة ترفع من لا يعبأ بهم ، ومن ينظر إليهم على أنهم في الحضيض وهو في الأوج ، فلم يخاطبهم كما خاطبهم الجاحظ مثلا ، ولم يمتزج بهم ، أو يشركهم في بعضهم شئونهم ، بل إنه تنقص تدنيهم ، ودعا إلى النفرة منهم ، فسكان خصما لهم ، وكانوا له خصوما .

يدل على ذلك ما نقله عن أستاذه أبي سليمان المنطقي من ازدراء معارف العامة .
وأما « لا توحيد لها ، ولا حقيقة معها ، ولا مبالاة بها »^(٤) .

ويدل عليه أيضا أيضا أنه رفض أن يتصدى القصص وتثقيف العامة ، لأن « التصدي للعامة مخلوقة (امتحان) وطلب الرفعة بينهم ضمة ، والتشبه بهم لقيصة . وما تمرض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله وكوثته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم .

وليس يقف على القاص إلا أحد ثلاثة :

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٣٩ — ١٤٣

(٢) البصائر والذخائر ٢٣

(٣) المقاييس ١٣٨

إما رجل أبله ، فهو لا يدري ما يخرج من أم دماغه .
وإما رجل عاقل فهو يزدرجه ، لتعرضه لجهل الجهال .
وإما له نسبة إلى الخاصة من وجه ، وإلى العامة من وجه ، فهو يتذبذب عليه
من الإنكار الجالب للهجر ، والاعتراف الجالب للوصل .
فالقاص حينئذ ينظر إلى تفرغ الزمان لمدارة هذه الطوائف ، وحينئذ ينسلخ
من مهماته النفسية ولذاته العقلية ، وينقطع عن الازدياد من الحكمة بمجالسة أهل
الحكمة ، إما مقتبسا منهم ، وإما قابسا لهم .
وعلى ذلك فما رأيت من انتصب للناس قدملك إلا درها وإلا ديناراً أو ثوباً ،
ومناصبه شديدة للمأثلية ومُعداته ^(١) .

٤ — وقد وجد معاصروه في كتابه (مثالب الوزيرين) حملات على الوزيرين
الأدبيين ، لم يرضوها ، واعتقدوا أنه كتاب مشثوم لا يملكه أحد إلا ساءت
حاله . وقد ذكر ابن خلكان أنه جرب هذا ، وجربه غيره ممن يثق بهم ^(٢) .
ومن هنا تجافى الناس عن كتب أبي حيان كلها ، وتجاؤوا عن ذكره أيضا .

٥ — ثم إن المؤرخين تغافلوا عنه — على علو قدره ، وسعة علمه ،
ومقدراته في البيان — إما نفورا من تطاوله على علماء عصره ، وإما ثارا
منه ، لأنه هجا ابن العميد وابن عباد ، وقد كان لها أنصار كثير من العلماء
والأدباء .

٦ — على أنه سلق عصره كله بلسانه في مواضع شتى من كتبه .
كقوله في حسرته على ما ضيحه وأساء من حضره : « بارت البضائع ، وغارت

البدائع ، وكسند سوق العلم ، ونجد ذكر الكرم ، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم» (١) .

وقوله : قد أصبحنا في هذه الدار ، وكأنما هي قلع أملس ، أو أثر آخرس .
لم يبتق من يرضى هدمه ، أو يخطب هرقه ، أو يقتنى جوده ... وما ذاك إلا
لنسفل القلوب ، ودخل الأهرق ، وخلوة الدين ، وغلبة القسحة ، والتبجح
بالفحشاء والمنكر» (٢) .

وقوله : « وقد بُلينا بهذا الدهر ، الخالي من الديانين الذين يُصلحون
أنفسهم ، ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوي من السكرام الذين كانوا
يتسعون في أحوالهم ، ويوسعون على غيرهم من سعتهم ... فذهب هذا
كله ، وتاه — هلك — أهله ، وأصبح الدين وقد أُخْلِقَ لبوسه ، وأورِش
مأنوسه ، واقتلع مغروسه ، وصار المنكر معروفًا ، والمعروف منكرا ...
وحصل الأمر على أن يقال : فلان خفيف الروح ، وفلان حسن الوجه ، وفلان
ظريف الجلة ، حسن اللب في النزء ، مدبّر للأموال ، معروف بالاستقصاء ،
لا يُفرضى عن دائق ، ولا يتغافل عن قيراط ...

وهذه كلها كسنايات عن الظلم والتجديف — الكفر بنعمة الله — والخساسة
والجهل وقلة الدين ، وحب الفساد» (٣) ...

٧ — وربما كان نظرائه يحسدونه ، ويجهدون أنفسهم في النيل منه ، وكان
المتصلون منهم يرجال الحكم يباعدون ما بينهم وبينه .

وهو نفسه يصرح بذلك في قوله :

(١) معجم الأدباء ١٦/١٥ (٢) المقابسات ١١٧

(١) الإمتاع والمؤانسا ١٦/ — ١٨

« وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد ، كما سألتك أولاً على طريق الاقتراح ، أن تكون هذه الرسالة مصنوعة عن عيون الحاسدين العيانيين ، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المنافسين ، فليس كل قائل يسلم ، ولا كل سامع يُنصف . والبليغة مضاعفة من جهة النظراء في الصناعة ، وللحسد تَوَرَّانٌ في نفوس هذه الجماعة ، وقل من يجهدُ جهده في التقرب إلى رئيس في التقرُّب إلى رئيس أو وزير ، إلا كجِدٍّ في إبعاده من مرامه كل صغير وكبير . وهذا لأن الزمان قد استحال عن المهود وجفَّ عن القيام بوظائف القِيانات وعادات أهل المروءات ، لأُمور شرُّها يُطول .

وقد كان الناس يتقلبون في بسِيط الشمس (أعنى الدين) فغرَّبَتْ عنهم ، فعاشوا بنور القمر (أعنى المروءة) فأفلَ دُونهم ، فَبَقُوا في ظلمات البر والبحر (أعنى الجهل وقلة الحياء) ، فلا جَرَمَ أَهْضَلُ الداء ، وأشكَلُ الدواء ، وغَلَبَتِ الحيرة ، وفُتِقِدَ المرشد ، وقل المسترشد ، والله المستعان » ^(١) .

إحراق كتبه

— ١ —

كأنما تأبى حياة أبي حياي إلا أن تكون سلسلة موصولة من حلقات الضيق والغرائب والمفارقات . أو كأنما أرادت له أخلاقه ومزاجه أن يكون ذا عجائب وغرائب .

ولقد كنا نتوقع من عالم أديب مثله أن يفعل كل شيء ، إلا أن يقدم إلى النار ثمرات عقله ، وغراس قلمه ، وفلذات نفسه ، ونتائج كده وسهره .
لكنه قد فعلها ، ولكن قد دافع عن فعلته دفاعاً يحسبه مقنماً أو مبرراً ، وهو لا إقناع فيه ولا تهديد .

— ٢ —

أما خلاصة دفاعه فهي :

- ١ — أن كل حي مصيره إلى الفناء ، إلا الخالق سبحانه .
 - ٢ — أنه استخار الله في إحراقها .
 - ٣ — أنها لم تنفعه ، فقد عاش معدماً ، ولم تكسبه الوجاهة بين الناس .
 - ٤ — لم يجد من يفهمها ويقدرها .
 - ٥ — خشى أن يتخذها قوم بعد وفاته وسيلة للنيل منه إن كان بها سهو أو غلط ، وقد عاين منهم في حياته تحاملاً عليه ، وترصداً لهفواته .
- (م — ٨ أبو حيان)

- ٦ — أنه نيف على المانين ، فلا أمل له في مجد أو غنى أو لذة حياة .
- ٧ — وقد مات خلاًه ، فهو يوشك أن يلحق بهم .
- ٨ — وله أسوة بالعلماء الذين دفنوا كتبهم أو أغرقوها أو مزقوها أو أحرقوها .
- ٩ — أن الشهرة بهرج وزيف ، وإنما العبرة بالأعمال الصالحة والرضا .
- ١٠ — أن الحرص على الكتب كالحرص على الذهب والفضة ، وسيموت صاحب الكتب ، ويموت صاحب الذهب ، ولا خير فيها جمع من كتب أو ذهب ، وإنما الخير فيها قدم من عمل صالح .
- ١١ — أنه أحرق كتبه في حال بئسة ، فقد كان مريضاً ، ممسراً .
- ١٢ — أن هذا قضاء من الله وقدر .
- وهذا ، الأدلة أو المآذير كلها خطابية ، ليس من بينها سبب واحد يصح أن يحمل العالم الأديب على إحراق كتبه .
- بل هي ضرب من المغالطة الماهرة .
- وقد صدق في قوله إنه أحرقها في مرضه وعسرته . ويظهر أنه كان قد ضعف ضعفاً شديداً ، فهو في رسالته السابقة يقول لأبي سهل « لم أزل في محبتك على قربك ونأيك ، مع ما أجده من انكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتساوٍ الملل على » ، وتأخذ الأعضاء منى . فقد كل البصر ، وانعقد اللسان ، وجحد الخاطر ، وذهب البيان ، ومَلَك الوسواس ، وغلب اليأس من جميع الناس »^(١) .
- ومن هنا نعلم أنه أحرق كتبه في غمرة من النقمة والألم واليأس والوسواس ،

ولسنا نشك في أنه بكأها بعد أن هدأت نفسه ، وفي أنه كان يتمزى عنها بأن
تسخر منها عند بعض الناس .

وما من شك في أن المكتبة العربية كانت ستخسر خسارة فادحة ، لو أن هذه
الكتب قد توارت مع الزمن ، ولو لم يحتفظ بها الذين كانوا قد اقتنوها ،
وحرسوا عليها .

ولو أن أبا حيان استشف ما وراء العبر ، واستكنه الغيب ، لعلم أن كتبه
— التي استخف بها ، واستهان بما فيها ، ويئس من تقدير الناس لها — ستحتل
الصدارة فيما خلف القل العربي من تراث مجيد ، يتجدد على الزمن ، ويستحق
الإعجاب والتقدير .

غفر الله لأبي حيان ، فقد كان على علمه وأدبه مستوفز الحس ، حاد المشاعر ،
مرع الغضب ، أقرب إلى التشاؤم وسوء الظن ، وهذه هي البواطن الصحيحة
التي زينت له أن يقدم إنتاجه كله طعمة للنار ، وهو لا يدري أنه يحرق أشهى
الثمرات ، ولا يعبأ بما يوجه إليه من ملام .

— ٣ —

ولما أحرق كتبه أرسل إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يَمْنِذُه على فَعَلاته ،
ويعرفه . فبح ما ارتكب ، فرد عليه أبو حيان يعتذر من ذلك في كتاب طويل ،
حاول فيه أن يبرر عمله ، وصور فيه أطرافاً من حياته .

وكتابه هذا هو الوحيد في الأدب العربي الذي يصور فعلة كهذه .

وإنه لجدير بالتسجيل في هذه الدراسة .

قال أبو حيان :

« حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك ، وأعاذني من

مكافأتك على ذلك . وأجارنا جميعاً مما يُسَوِّدُ وَجْهَ عَهْدٍ ، إن رعيناه كنامستأنسين به ، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله . وأدام الله نعمته عندك ، وجعلني على الحالات كلها فداك .

وأفاني كتابك ... الذي وصفت فيه ما نال قلبك ، والتهب في صدرك ، من الخبر الذي نَمَى إِلَيْكَ فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار ، وغسلها بالماء .

فمجيئاً من انزواء وجه العذر عندك في ذلك ، كأنك لم تقرأ قوله جل وهز « كل شيء هالكٌ إلا لوجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » وكأنك لم تأبه لقوله تعالى : « كلٌّ من عليها فإن » وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا ، وإن كان شريف الجوهر كريم المنصر ، مادام مُقَلَّباً بين الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتعاود الأيام .

ثم إنى أقول : إن كان — أيدك الله — قد تَقَسَّبَ مُخَفِّفُكَ ما سمعت ، فقد أَدْمَى أَظْلَى (باطن إصبعي) ما فعلت ، فَلَيْسَ مِنْ عِلَيْكَ ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخترت الله عز وجل فيه أياما وليالي ، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقداً العزم ، وأَجَدَّ فَاثَرُ النِّيه ، وأَحْيَا مَيْتَ الرَأْي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الرَّبُّوع ، وتَرَكَيْم (تخير) في الخاطر .

وأنا أجهودُ عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت ، أو بالعذر إن استوضحت ، لئلا أُنشِقَ بِي فيما كان مني ، وتعرفُ صُنْعَ اللَّهِ تعالى في تَنْبِيهِ لِي (المراد صنعه لي) .
إن العلم — كحاطك الله — يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلا على العالم ، وأنا أعود بالله من علم هاد كلا وأورث ذملاً ، وصار في رقبة صاحبه مُعَلَّلاً .

ثم اعلم - علامك الله الخير - أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلا نيته ، فأما ما كان سرا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبا ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبا .

على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المسألة مهم ، ولتقد الرئاسة بينهم ، ولقد الجاء عندهم ، فخرمت ذلك كله ، ولاشك في حُسن ما اختاره الله لي ، وناطه بناصيتي ، وربطه بأمرى .

وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لالى .

ومما شَهِدَ العزم على ذلك ، ورفع الجباب عنه ، أنى فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبيا ، وصاحباً قريبا ، وتابعا أدبيا ، ورئيسا منيبا (يريد أن المستحقين لإبقائه على كتبه لا وجود لهم) فشق على أن أَدْعِيَا لِقَوْمٍ يَتْلَعِبُونَ بها ، ويدنسونه برضى إذا نظروا فيها ، وَيَشْتَمُونَ بِسَهْوٍ وَغِلْطٍ إذا تصفحوها ، ويتراءون قصى وعيبي من أجلها .

فإن قلت : ولم تَسْمُهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذى يحقق ظنى بهم بعد المات .

وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ؟

ولقد اضطررت بينهم ، بمسد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخفسر في الصحراء ، وإلى التَّكْشُفُفِ الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والروءة ، وإلى تماطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى مالا يَحْسُنُ بالحر أن يرسمه بالقلم ، وي طرح في قلب صاحبه الألم .

وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائلك وصباحك . وليس ما قلتُه

بخافٍ عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تَبَهُّمك وتفرغك .
وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما قدمته ووصفته ،
وبما أمسكت عنه وطويته ، إمامها من التطويل ، وإما خوفا من القال والقال .
وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غدا ، فلاني في عَشِير التسمين ، وهل لي
بمد الكبرة والمعجز أمل في حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ؟
ألسْتُ من زمرة من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو
وكما قال الآخر :

تَفَوُّتْ دَرَاتِ الصَّبَا فِي ظِلَالِهِ إِلَى أَنْ أَتَانِي بِالْمَظَامِ مَشِيبُ
والله يأسدي لو لم أنمظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان في هذا
الشفيع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقربهم ،
والنفس تستنير بقرهم ؟
فقدتهم بالعراق والحجاز والجليل والرمي وما إلى هذه المواضع ، وتواتر إلى
نعميهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لي بحمد من مصيرهم ؟ أسأل الله تعالى
رب الأولين أن يجعل اعترافي بما عرفه موصولا بنزوعي عما أقرفه ، إنه قريب مجيب .

وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يُسْتَدَى بِهِمْ ، ويُؤْخَذُ
بَهْدِيهِمْ ، ويُعَشَّى إِلَى نَارِهِمْ ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار
المعلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه في بطن الأرض ، فلم يوجد
لها أثر .

وهذا داود الطائي — وكان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة ، ويقال له
تاج الأمة — طرح كتيبه في البحر ، وقال يناجيها : نعم الدليل كنت ، والوقوف
مع الدليل بعد الوصول مناء وذهول ، وبلاء ونحول .
وهذا يوسف بن أسباط حمل كتيبه إلى غار في جبل ، وطرحها فيه ، وسد بابه .
فلما هوتب على ذلك قال : دُلِّنا العلم في الأول ، ثم كاد يعضلنا في الثاني ، فهجرناه
لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل ما أردناه .

وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتيبه في كنشور وسجّرها (أحماها في النار)
بالنار ، ثم قال : والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك .

وهذا سُفْيَان الثَّوْرِيّ مزق ألف جزء وطيرها في الريح ، وقال : ليت يدي
قطعت من هاهنا ، بل من هاهنا ، ولم أكتب حرفا .

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك
هذه الكتب تسكتسب بها خير الأجل ، فإذا رأيته تخونك فاجعلها طمسة
لنار .

وماذا أقول وسامعي يُصَدِّق أن زمانا أحوجّ مثلي إلى ما يملك كَوَمانٌ
تُدَّعَى له العين حزنا وألمي ، ويتقطّع عليه القلب غيظا وجوى وصنى وشجّا ،
إن احتججتُ إلى العلم في خاصة نفسي فقليل ، والله تعالى شافٍ وكافٍ ، وإن
احتججتُ إليه للناس في الصدر منه ما يملأ القرباس ، إلى أن تَفْنِي الأنفاس
بعد الأنفاس » ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون .

فلم تُعْنَى عيني — أيدك الله — بعد هذا بالجر والورق والجلد والقراءة

والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ؟

وهل أدرك السَّكْف الصالح في الدين الدرجات العُلى إلا بالممل الصالح ،
وإخلاصِ المعتقد ، والزهد الغالب في كل مارق من الدنيا ، وخدع بالزُّبْرَج ،
وهوى بصاحبه إلى الهبوط ؟

وهل وصل الحكماء القدماء إلى السمادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعى ،
وإلّا بالرضا باليسور ، وإلا ببذل ما فضل من الحاجة للسائل والمحروم ؟ .

فأين يَذْهَبُ بنا ، وعلى أى باب نخط رحالنا ؟ .

وهل جامعُ الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ؟ .

وهل النهومُ بها إلا كالخريص الجشع عليهما ؟ .

وهل المفرمُ بجها إلا كمكائرها ؟ .

هيهات ، الرحيل والله قريب ، والثواء قليل ، والمُسْتَجِيعُ مُقْبِض ، والمقام
مُحْبِض ، والطريق مَخُوف ، والمعين ضعيف ، والافتتار غالب ، والله من
وراء هذا كله طالب .

نسأل الله تعالى رحمةً يُظِلُّنا جَنَاحَها ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْعَاجِلَةِ
عُدُودَها وَرَوَاحَها ، فالويلُ كُلُّ الويل لمن بَعُدَ عن رحمته بعد أن حصل
تحت قَدَرِهِ .

فهذا هذا . ثم إني — أيدك الله — ما أردت أن أجيبك عن كتابك بطول
جفائك ...

على أنى لو علمتَ فى أى حال قلب على ما فعلته ، وعند أى مرض وعلى أية
عُسيرة وفاقه ، لعرفتَ من عذرى أضعاف ما أبديته ، واحتججتَ لى بأكثر مما
نشرتُه وطويتُه .

وإذا أنعمتَ النظر ، تيقنت أن لله جل وعز فى خلقه أحكاما لا يُعَاذُ عليها
ولا يُقَالُ فيها ، لأنه لا يُبْسَلُغُ كنهنها ، ولا يقال فَيْسَبها ، ولا يدرف قابُها (قدرها)
ولا يقرع بابها .

وهو تعالى أملاكُ لنواصينا ، وأطلعُ على أَدَانينا وأفاسينا ، له الخلق والأمر ،
وبيده السكُنُسر والجُبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد
والقبر والسلام»^(١) .

اتهامه بالوضع

— ١ —

عرفنا أن خصومه جرّحوا دينه ، إذ اتهموه بالزندقة ظالمين ، وتعالى أحدهم فادعى أنه شر على الإسلام من ابن الراوندى الزنديق الملحد .

وكأنما لم تشفِ هذه التهمة ما بأنفسهم من كحق على أبي حيان ، فراحوا يطعنونه في ناحيته الأدبية ، إذ اتهموه بالوضع ، حتى لا يوثق بروايته لخبر من الأخبار ، ولا لنص أدبي أو تاريخي .

وأول ما يسترعى النظر في هذا الاتهام أن القائلين به من رجال الحديث لأمّن رجال الأدب واللغة .

والمعجيب أن الرجل لم يكن من المحدثين السكبار المشهورين ، وإن كان في نظر السبكي من المحدثين في عصره ، وروى عنه جماعة ^(١) .

فهل كانت روايته للحديث ورواية تلاميذه عنه أوسع آفاقاً وأبعد مدى مما ذكر السبكي ؟

هل كان رواية بعيد الصيت ، ثم أهملت روايته ؟ ما نظن ذلك .

على أننا نقرأ كتبه ، فنجدّه يستشهد بأحاديث كثيرة ، ليس فيها ما يتناقى مع روح التشريع ، ولا مع الصبغة العامة للأحاديث النبوية .

وإذا فلا بد من باعث آخر لأن يتهمه بالوضع بعض رجال الحديث والدين .

— ١٢٣ —

— ٢ —

وأغلب الظن أن ذلك الباعث هو الرسالة التي روى أبو حيان أن أبا بكر وعمر أرسلها إلى عليّ، حينما تأخر عن بيعة أبي بكر، فجاء علي وحاورها وحاوراه، وكان أبو عبيدة بن الجراح حامل الرسالة الشفهية إلى عليّ.

١ — وهي رسالة طويلة^(١)، ذكر أبو حيان أنه سمعها من القاضي أبي حامد المروزي^(٢)، رواية عن عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن أبي عبيدة بن الجراح. مع اختلاف في سلسلة الرواة في بعض مراجع الرسالة.

٢ — وهذه الرسالة مصدقون ومكذبون، بعضهم يثبت ويدلل، وبعضهم ينفي ويعمل، وبعضهم يكتفي بالنفي أو الإثبات. وقد وقف منها بعض الدارسين موقف الحيدة المطلقة، فلم يثبتها ولم ينفيها.

أما الذين نفوها فهم الذهبي وابن حجر وابن أبي الحديد والسندوبى وزكى مبارك.

ذكر الذهبي عن جعفر بن يحيى الحكاك أنه سمع من أبي النصر الشجرى أنه سمع الماليني يقول: قرأت الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر وعمر — مع أبي عبيدة إلى علي رضي الله عنه — علي أبي حيان، فقال لي: هذه الرسالة عملتها ردا على

(١) الرسالة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٩٢/٢ — ٥٩٧ وصيحه الأعشى ٢٣٧/١ — ٢٤٧ ونهاية الأرب للنويرى ٢١٣/٧ — ٢٢٩ ومقدمة المقابسات ٢٥

(٢) أبو حامد أحمد بن بشر البصرى المروزي. كان عالماً بفنون العلوم الدينية والأدبية. قال فيه أبو حيان « كان بجرأ يتدفق حفظاً للسير والأخبار، واستنباطاً للمعاني، وثباتاً على الجدل، وصبراً في الخصام. وقال إنه أنبل من رأيته في عمري. توفي ٣٦٢ هـ.

الرافضة ؛ لأنهم كانوا يحضرون مجلس بمضى الوزراء ، ويقالون في حال عليّ ،
فعملت هذه الرسالة .

وعلق الذهبي على هذا بقوله : فقد اعترف بوضعها (١)

وأنكرها ابن حجر ، واتهم أبا حيان بوضعها (٢) .

وشك فيها ابن أبي الحديد ، ودلل على شبهته بمدة أدلة ، وقال إن الغالب
على ظنه أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع ، ولأنه
من كلام أبي حيان التوحيدي .

وملخص أدلته هو :

أ — هذا الكلام شديد الشبه بكلام أبي حيان ومذهبه في
البلاغة والخطابة .

ب — لا يشبه هذا الكلام كلام أبي بكر وعمر ، لما فيه من بديع المحدثين
وصناعتهم ، وإنما هو أشبه بكلام أبي حيان .

ج — أسنده أبو حيان إلى أبي حامد المروزي ، وهذه عادته في كتاب
البصائر ، يسند إليه كل ما يريد أن يقول هو إذا كره أن ينسب إليه .

د — لم يذكر أحد من المتكلمين على اختلافهم من معتزلة وشيعة وأشعرية
وأصحاب حديث ، كلمة واحدة من هذه الحكاية .

ه — كان الرضّى شديد الحرص على التقاط ما روى عن عليّ ، وإذا ظفر
بكلمة من كلامه فكأنه ظفر بملك الدنيا ، وقد أودع هذا كله كتبه ، فأن كان

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ٣ / ٣٥٥

(٢) لسان الميزان ٦ / ٢٩٦

الرضي عن هذا الحديث (١) ؟

وكيف غفل عن هذا من كانوا قبل رضي من علماء الإمامية كابن النعمان
وبني نوبخت وبني بويه وغيرهم ؟ ومن كانوا بعده من متكلمي الشيعة وأصحاب
الأخبار والحديث إلى وقتنا هذا ؟

و — أين كان أصحابنا (المتزلة) عن كلام أبي بكر وعمر لعلي ؟ وكيف لم يذكره
قاضي القضاة (٢) في المغني ، مع احتوائه على كل ما دار بينهم ، حتى إنه يصلح لجمع
تاريخ كبير في أخبار السقيفة ؟

وهلاً ذكر هذا الكلام من كانوا قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا ،
ومن جاءوا بعده من متكلمينا ورجالنا ؟

وكذلك القول في متكلمي الأشعرية وأصحاب الحديث كابن الباقلاني ، وقد كان
شديداً على الشيعة وعلى أمير المؤمنين علي ، فلو أنه ظفر بكلمة من كلام أبي بكر
وعمر في هذا الحديث للألأكتب بها .

الأمر في وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ومعرفة
بكلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير ، وأقل أنس بالتواريخ (٣) .

وقد أيقن السندوبي بوضعها ، لأن أسلوبها الزاخر بالاستعارات والمجازات
لا يتفق مع المعروف من رسائلهم وخطبهم ، ولأن فيها عبارات لا تناسب
مع أخلاقهم (٤) .

(١) أبو الحسن محمد الشريف الرضي لقيب الطالبين . جامع كتاب نهج البلاغة . توفي
سنة ٤٠٤ أو ٤٠٦ .

(٢) أبو الحسين عبد الجبار الهمداني الأسدي العالم المتكلم المعتزلي الشهير . توفي
سنة ٤١٥ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٥٩٧/٢

(٤) مقدمة المقاصد ٤٠

ثم جاء الدكتور زكي مبارك فذهب إلى أن التوحيدى اخترع حديث السقيفة، وأطلق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، ومن دقة محاكاته أنه حرص على التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ، ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين^(١)

٣ — وقد صدّق الرسالة — فيما نعلم — اثنان : هما محمد كرد على وعبد الرازق عي الدين .

أما الأستاذ محمد كرد على فذهب إلى أن الرسالة صحيحة ، واستبعد أن يضمها التوحيدى « وبعيد عن العقل أن يضع التوحيدى هذه الرسالة ، وهى بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإن أحب ابن أبي الحديد أن يشبهها به . أما التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها ... »

وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن الرسالة ليست من صنع أبي حيان ، وأنها كانت معروفة قبله .

وإذا أبى بعضهم إلا أن يقول إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدى بكثير . وهى على كل حال لا تخلو من أصل ، ربما زيد عليه بأيدي من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة ، فأرادوا نكاية الشيعة فى كثير مما صنعوه ، فزادوا أمورا فى هذه الرسالة وقعت بين الصحابة ، أو تمثلوا وقوعها^(٢) .

ثم جاء الدكتور عبد الرازق عي الدين فرجح أن الرسالة صحيحة :

١ — لأن فيها نبلا من أبي بكر وعمر ، ولم يكن أبو حيان جاهلا بمذاهب

(١) النثر الفنى ٦٩/١

(٢) أمراء البيان ٣٦/٢

الفرق الإسلامية ، حتى يتعمد إيداء الإمامية بالخط من مقام الخليفتين .

ب — ولأنها تمثل حال القوم جملة ، وتصور نفسية أبي بكر وعمر وعلى أثناء حادث السقيفة .

ح — ولأنها شبيهة بأساليبهم .

د — ولأن أبا حيان أعلن أنه رواها بالنص ^(١) .

٤ — وقد نظر النويرى إلى الرسالة نظرة الحماد ، فلم يمل إلى صدقها أو كذبها ، ووكّل الأمر في حقيقةتها إلى الله ^(٢) .

ه — والذي أراه أن الرسالة موضوعة ، ولست أشك في أنها مصنوعة .

فن الذى وضعها ؟ أهو القاضي أبو حامد ؟ أم أبو حيان ؟

كلا الفرضين محتمل .

فن الجائز أن أبا حامد قد افترضها ، وكتبها زمنا ، ولم يطلع عليها غير الوزير المهلبى ، كما قال جلسائه الذين كانوا يسمرون عنده ، فلما أخبرهم بها ، وأعلموه أنهم يجهلون ، وألحوا عليه أن يرويها لهم ، رواها .

وهو في روايته لها يستند إلى عيسى بن دأب ، عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، عن أبي عبيدة بن الجراح . وكان أبو عبيدة هو الوسيط بين أبي بكر وعلى ، وهو الذى حمل الرسالة إلى على .

نعم من الجائز أن تكون الرسالة من صنع أبي حامد ، فلما سمعها أبو حيان صدقها وأثبتها ، لأنه كثيرا ما روى عن أبي حامد ، وكثيرا ما وثق به .

(١) أبو حيان التوحيدى ١٠٩

(٢) نهاية الأرب ٧/٢١٤

ومن الجائز أن تكون الرسالة من اختلاق أبي حيان ، ولكنه عزاها إلى أبي حامد ، ليقوى سندها ، وليستلم من تيمتها .
وأولنى على أنه الرسالة موضوعة هي :

١ — في الرسالة عقيدة شيعية غالية ، لم تسكن قد نشأت ، ولا عرفت حينما يبيع أبو بكر بالخلافة ، ففيها تصريح بأن عليا ينتظر الوحي ، ويتوقع أن يهبط عليه جبريل .

جاء في كلام عمر لعلی : « ولقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في فقر من أصحابه ومعههم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي في قوم من الأنصار ، فقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة ، ويؤمن أنه أولى بها من أبي بكر . فأنسكرت عليهم ، ورددت القول في محورهم ، حتى قالوا : إنه ينتظر الوحي ، ويتوكل (ينتظر) مناجاة السالك . فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد محمد ... »

(ب) فيها تهجهم على الإمام عليّ وتجريحه ، ولم يكن أبو بكر أو عمر ليطلق لسانه بمثل هذا ، ولم يكن عليّ ليطلق أن يسمع مثل هذا ، كقول أبي بكر لعلی :

« ما هذا الذي تسوّل لك نفسك ، ويدّوى ^(١) به قلبك ، ويلتوى عليه رأبك ، ويتخاوص ^(٢) دونه طرفك ، ويستشمرى به ^(٣) ضغنك ، ويتردد معه نفسك ... أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدى غير هدى محمد ؟ أمثلي تمشي له الضراء ، وتدب له الخمر ^(٤) ؟ ... »

(١) يمرض

(٢) التخاوص تضيق النظر مع تحديده كمن ينظر إلى الرمح لثقوبه أو إلى قرص الشمس

(٣) يزيد

(٤) المراد تحاول خنثه

إنك والله لجدُّ عارفٍ باستجابتنا لله ورسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، في زمان أنت فيه في كُن الصُّبا ، وخُذِر الغرارة^(١) ، غافل عما يُشيب ويُريب ، لا تَعى ما يشاد ويراد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشكالك ...

فدع التَجشُّسَ والتَمشُّسَ لمن لا يَظلم لك إذا خطا^(٢) ، ولا يترحزح عنك إذا عطا^(٣) .

ومثل ذلك قول عمر في الرسالة نفسها :

ما هذه الخُنْزِوانة^(٤) التي في رأسك ؟ وما هذا الشَّجَا المترصُّ في مدارج أنفاسك ؟ وما هذه الوَحْرة^(٥) التي أكلت شرا سيفك^(٦) ؟

وما هذا الدُّخْسُ^(٧) والدُّسُّ اللذان يدلان على ضيق الباع ، وخَوَر الطباع ؟ وقوله :

فإن يكن في الأمد طول ، وفي الأجل فسحة ، فستأكله مرَّياً أو غير مرَّيٍّ ، وستشربه هنيئاً أو غير هنيٍّ ، حين لا رادَّ لِقولك إلا من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك ، حين يَمَسُّ إهابك ، ويُمرِّك أديمك ، ويُزري على كَهديك . هنا لك تفرُّع السن من ندم ، وتشرب الماء ممزوجاً بدم ..

(ح) في أول رسالته كلام من أبي بكر لأبي عبيدة ، ينبئ عن قلق المرسل لرسوله ، وخدمته بالفناء ، وتعليق النجاح كله بوساطته ومهارته .

(١) الحداثة

(٢) لمن لا يخطو إليك كما يخطو الأعرج أو المصاب في قدمه

(٣) عطا : تناول أو رفع رأسه ويديه

(٤) الكبير (٥) الحقد

(٦) مقطوع الأضلاع (٧) ورم وانتفاخ من الغضب

ولم يكن الأمر كذلك ؛ لأن أبا عبيدة — فيما تزعم الرواية — كان رسولا مقيدا بتبليغ رسالة إلى علي من أبي بكر وعمر ، ولم يكن رسولا طلقا حرا يعتمد على مهارته في إصلاح ذات البين .

قال أبو بكر لأبي عبيدة :

« يا أبا عبيدة ، ما أيعن ناصيتك ، وأبشأن الخير بين عينيك . لقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والحل المهبوط . ولقد قال فيك في يوم مشهور : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » . وطالما أعز الله الإسلام بك ، وأصلح كملته على يدك . ولم تزل للدين مُستجبا ، وللمؤمنين مُرتجى ، ولأهلك ركننا ، ولإخوانك رِداء . قد أردت لك لأمر ما بعده خطرٌ مخوف ، وصلاحه من أعظم المعروف . ولئن لم يندمل مُجرحه بسببارك^(١) ورفقتك ، ولم تجيب حبيته برؤيتك ، فقد وقع اليأس ، وأعضل البأس ، واحتيج بعدك إلى ما هو أمرٌ من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق . . . »

٥ — وإنه ليسارع إلى الخطر الشك في صدق الرسالة ، لأنه ليس بمعقول أن يروىها هؤلاء فردا عن فرد ، ثم تظل الرسالة مجهولة نحو أربعة قرون ، لم يعلم بها أحد ، إلى أن بلغت أبا حامد المروزي ، فرواها للوزير المهلبى ، ثم رواها جلسائه .

ولو أن أبا حامد كان معاصرا لأبي عبيدة لجاز أن يعلم بالرسالة وحده ، لكن بينه وبين أبي عبيدة أربعة رواة ، فكيف توانق كل منهم على أن يروىها لشخص واحد لا يعمده ؟ وكيف بقيت الرسالة في طوايا الزمن هذا المبر الطويل وهي مجهولة غير متألمة ؟

(١) آلة يعرف بها غور الجرح

مع أن المؤرخين قد دونوا كل ما دار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ،
وفصلوا القول تفصيلا في الخلاف بين أبي بكر وعليّ .

على أننا نجد في كلام أبي حيان ما يؤكد أن شخصا آخر كان يعرف الرسالة ،
ولكن أبا حيان آثر رواية أبي حامد على روايته .

قال أبو حيان : روى لنا هذه الرسالة أبو حامد ، ثم أخرج لنا الأصل ،
فقابلنا بها ، فما كان غادر منها إلا مالا بال له .

فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب ، فإنه حالف في أحرف في حواشي
الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبدل منه . وقد كان أبو منصور
بلمة العرب أبصر ، وفي غرامها أنفذ .

وإنما قدمت رواية أبي حامد ؛ لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ،
وفيا أشكل منها أفقه .

(هـ) أسلوب الرسالة يغاير تمام المغايرة أسلوب الزمن الذي قيلت فيه .

فهى كثيرة الأسجاع في جمل قصار متوازنة ، ولقد يتوالى سجعها ويطرده .

وإذا لاحظنا أنها رسالة شفوية لا مكتوبة ، ثم إذا لاحظنا أن السجع
القصير الفقرات المتوازن كان كثيرا حتى في مشافهة عمر لعليّ ، ازدادنا شكرا
في أسلوبها ، ورجحنا أنها من إفشاء القرن الرابع .

من الفقرات المسجوعة المتوالية ، قول أبي بكر :

« البحر مفرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف^(١) ، والليل

اغْدَف^(١) ، والسماء جَبَلَوَاء^(٢) ، والأرض كَسَلَمَاء^(٣) ، والصمود متمذّر ،
والهبوط متمسّر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل كسوف كعصوف^(٤) .
ومن السجع المطرد حتى في مشافهة عمر لعل^(٥) بعد أن حضر وبايع
أبا بكر :

« يا أبا الحسن ، كيف كف من غرْبك ، ونهَسْنِه من سرْبك ، ودع العصا
بلحائها ، والدُّلو برشائها ، فإننا من خلفها وورائها ، إن قدَّ حنا أورَيْنَا ،
وإن قرَّحْنَا أدمينا ، وإن منحنا أروينا . »

(و) في الرسالة تفرقة بين معاني المفردات المترادفة ، لانتتمد على ذوق
لنوى ، ولا على عرف شائع في ذلك العصر ، وإنما تعتمد على التفلسف والتعمّل ،
وهي بهذا بعيدة كل البعد من أسلوب عمر بن الخطاب .

جاء في كلام عمر الذي حمّله أبا عبيدة لينقله إلى عليّ أن عمر يترف بأن
أبا بكر أقرب إلى رسول الله قُرْبَةً ، ويرتب على هذا أن القُرْبَةُ روح ونفس ،
ويعترف بأن عليا أقرب إلى الرسول قرابة ، ويرتب على هذا أن القرابة دم ولحم ،
ولتبيح هذا كله أن أبا بكر أولى بالخلافة .

وليس في اللغة تفريق بين القرابة والقربة ، لأنهما بمعنى واحد^(٥) .

قال عمر : « إن أبا بكر كان حبة قلب رسول الله وعلامة نفسه ، ومهيبة
سره ، ومفزع رأيه ومشورته ، ومثوى حزنه ، وراحة باله ، وممرق
طرفه . . . ولعمري إنك أقرب منه إلى رسول الله قرابة ، ولكنه أقرب

(١) مرخ سدوله وظلامه

(٢) صافية

(٣) لا معالم فيها ولا شجر

(٤) نسوف : شديد الإهلاك

(٥) أساس البلاغة والقاموس المحيط

منك قرُبة ، والقربة لحم ودم ، والقربة روح ونفس ، وهذا فرق عرفة
المؤمنون » . . .

(ز) في أساليبها خيال كثير ليس من سمات النثر في ذلك العصر ، مثل :
« ونحن أئمة ذلك نمانى أحوالا تزيل الرواسى ، ونقاسى أهوالا تشيب
النواصى ، خاضعين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صائبها ، ونشرج
عيانها^(١) ، ونخسكم أساسها ، ونسبم أمراسها^(٢) ، والعيون تتحدج بالحسد ،
والأنوف تمتطس بالسكبر ، والصدور تستعر بالغيط ، والأعناق تتطاول بالفخر ،
والألسنة تشحذ بالسكر ، والأرض تمهد بالخوف ، ولا تدفع في نحر
أمر إلا بمد أن تحسوس الموت دونه ، ولا نبليغ إلى شيء إلا بمد كجرع
العذاب قبله » .

(ح) وأخيرا نعود فتنائل الذهبى عن الباعث الذى زين لأبى حيان أن
بصطنع الرسالة ردا على الرافضة .

أهو بغضة أبى حيان لملى ؟

لم أجد فى كتبه بغضة لملى ، أو مؤازرة لمصومه .

بل إن فى ثنايا كتبه ما يدل على تقديره لملى وبنيه .

فهو لا يذكر الإمام عليا إلا فى إجلال ودعاء ، كأن يقول : أمير المؤمنين ع
ابن طالب كرم الله وجهه^(٣) ، أو على رضى الله عنه^(٤) .

(١) نخرج : لعقد العرى . العياب : جمع عيبة وهى وعاء من جلد . والمراد نرتق
الأمور ونصلحها

(٢) الأمراس : الحبال

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣١/٢

(٤) البصائر والذخائر ١٤٦

ولا يذكر أبناءه إلا كذلك .

فقد ذكر الحديث الشريف « تحفة الصائم الطيب »^(١) ، وقال : هكذا رواه الحسين بن علي عن أبيه عليهما السلام^(٢) .

وروى حكمة لمحمد بن الحنفية ، وقال (عليه السلام)^(٣) وذكر الحسن والحسين مقرونين بقوله عليهما السلام^(٤) .

وفي الرسالة نفسها ما يبعد أنها اختلقت للنيل من علي ، لأن الذي يقرؤها في تمنن يشعر بالمطاف عليه ، ويعجب بحلمه وجلالته في مقابلة التهمج والشتم والاتهام بما هو أقرب إلى الصفح الجميل ، وبما يكفل للمسلمين الوحدة .

قال علي لأبي عبيدة : أهدأ كله في أنفس القوم ، يستنبطونه ويضطربون عليه ؟... والله ما كان قعودي في كسر هذا البيت قسداً للخلاف ، ولا إنكاراً لمعروف ، ولا زراية على مسلم ، بل لما وقذني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . . . وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق منه ، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وسلمَ لعلمه ومشيئته أمره . . .

وإذ قد أفعم الوادي بي ، وحشد النادى علي ، فلا مرحبا بما ساء أحدها من المسلمين . وفي النفس كلام لولا سابق عهد لشفيت غيظي بخنصرى

(١) في لسان العرب ١٠/ ٣٦٠ في الحديث تحفة الصائم الدهن والحمر . يعني أنه يذهب عنه مشقة الصوم وشدة

(٢) البصائر والذخائر ١٤٣

(٣) البصائر والذخائر ١٤٤

(٤) المرجع السابق ١٤٤

وَبِنَصْرِي ، وَلَسَكُنِي مُلْجِمٌ إِلَى أَنْ أَلْقَى اللَّهَ رَبِّي ، وَعَنْدَهُ أَحْتَسِبُ مَا تَزِلُّ بِي .

وَإِنِّي غَادٍ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — إِلَى جَمَاعَتِكُمْ ، وَمَبَايِعِ لِعَاصِحِكُمْ ، وَصَابِرٍ عَلَى مَا سَاءَنِي وَسَرَّكُمْ »

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ يَوْمِئِذٍ وَافَى عَلِيٌّ ، فَبَايَعَ أَبَا بَكْرٍ ، وَقَالَ خَيْرًا ، وَوَصَفَ جَمِيلًا .

عَلَى أَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ طَمَعٍ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشَرٍ ، لِأَنَّهَا تَصَوَّرُهَا شَتَا مَسْئِينَ لِعَلِيٍّ ، مَتَخَوِّفِينَ مِنْ تَخْلِيهِ عَنِ الْبَيْمَةِ ، ظَالِمِينَ لَهُ فِي تَعْنِيفِهِ وَاتِّهَامِهِ .

وَإِذَا فَلَيْسَتْ الرِّسَالَةُ كُلُّهَا فِي صَاحِخِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، وَلَيْسَتْ كُلُّهَا نَصْرُهُ لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، لِأَنَّهَا سَلَاخُ ذَوْ حَدَّيْنِ ، تَنْفَعُ وَتَضُرُّ ، وَتَنْصُرُ وَتُخْذَلُ .

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْفَهْمُ هُوَ الَّذِي تَبَادَرُ إِلَى بَعْضِ الْبَايِعِينَ قَدِيمًا ، فَاخْتَلَفُوا فِي وَاضِعِهَا ، وَالْغَرَضُ الْأَوَّلُ مِنْ وَضْعِهَا .

وَهَذَا وَاضِحٌ فِي قَوْلِ النُّوَيْرِيِّ :

« هَذِهِ الرِّسَالَةُ قَدْ اعْتَنَى النَّاسُ بِهَا ، وَأَوْرَدُوهَا فِي الْجَمَاعِيعِ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَفْرَدَهَا فِي جُزْءٍ ، وَقَطَعَ بِأَنَّهَا مِنْ كَلَامِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ وَجَوَابِ عَلِيٍّ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَهَا وَنَفَاهَا عَنْهُمْ ، وَقَالَ إِنَّهَا مَوْضُوعَةٌ .

وَاخْتَلَفَ الْقَائِلُونَ بِوَضْعِهَا ، فَهِنْهُمْ مِنْ زَعْمِ أَنْ فِضْلًا الشَّيْمَةَ وَضَعَهَا ، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ الْإِسْتِنَادَ إِلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَايَعَ أَبَا بَكْرٍ

الصديق بسبب ما تضمنته . . . ومنهم من زعم أن فضلاء أهل السنة وضعوها ^(١).

ولعل الذين ذهبوا إلى أن الرسالة موضوعة للرد على الرافضة نظروا إلى أن الفكرة العامة للرسالة الرد على أن عليا أحق بالخلافة من أبي بكر ، وإثبات أحقية أبي بكر بها .

كقول أبي بكر : « لئن كان عرض لك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن معرضا عن غيرك . وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك . وإن تلجلج في نفسك شيء فهلمّ فالحكم مرضى ، والصواب مسموع ، والحق مطاع . ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وهو عن هذه العصابة راض ، وعليها حذر ، يسره ما يسرها ، ويسوؤه ما ساءها . . . أما تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه وأقاربه وسُجَرَّائه ^(٢) إلا أبانه بفضيلة ، وخصه بمزية ، وأفرده بحالة . . . وبعد فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ، ودار جامعة . إن استقالوني لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضح يدي في يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ، وإن تسكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والقاتح لمغالقاتهم ، والمرشد لاضالهم ، والراصد لغوايتهم . . . ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل ، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الصنن » .

(١) نهاية الأرب ٧/٢١٣ — ٢٢٩

(٢) أضدقاته

أمانته في الرواية والنقل والوصف

كان أبو حيان في كتيبه كلها يتجرجر الدقة في النقل وفي الرواية ، حتى
لنحسب أن هذه الدقة عادة من عاداته ، لم يستطع الفكك من سلطانها
على نفسه .

ولمنا لانعدو الحقيقة إذا ما عرونا هذه الدقة إلى أمانته العلمية ، وإلى ممارسته
الطويلة للنسخ في شبابه .

ولو أن الرجل كان غير أمين لأضاف كثيرا من الآراء القيمة إلى نفسه ،
بدلا من نسبتها إلى ذويها ، لأنها كانت تكسبه مجدا وسبقا وشهرة ، لكنه
آثر أن ينسبها إلى ذويها ، وإن كان من الميسور أن يتبناها هو ، لأنه كان
قد سمعها وحده ، أو قرأها وحده .

وإن أمانته لتتكشف في تعقيبه أو تقديمه لبعض الآراء .

١ — فإذا أثبت الخبر بنصه نبه على ذلك ، كما فعل في الرسالة المنسوبة إلى
أبي بكر وعمر ، إذ قال : روى لنا هذه الرسالة أبو حامد المروزي ، ثم أخرج
لنا الأصل ، فقلنا بها ، فإكان غادر منها إلا مالا بال له .

فأما ما رواء لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف في أحرف في حواشي
الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبدل منه . وقد كان أبو منصور بلغة
العرب أبصر ، وفي غرائبها أنفذ .

ولمّا قدمت رواية أبي حامد ، لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه .

ومن ذلك أنه روى عن أبي الحسين القبطان تعريفات لمصطلحات أصولية ، ثم علق عليها بقوله : « وليس جميع ما قال مقرونا بالسلامة ، لسكنى رويته على ما علقته ، ولم أزين لفظه ، ولا نعتت عبارته » (١) .
وتسكّر في كتبه التعميمات الدالة على أمانته ودقته ، كقوله : قد رويته كما رأيته (٢) . وهكذا حفظته من المجلس (٣) .

ومن ذلك أنه فسر اللأمة باللاؤم ، وقال إن هذا لفظ غريب لأن اللأمة الدرع . . . هكذا حصلته من أبي سعيد السيرافي سماعا وقراءة ومسألة ومراجعة (٤) .

وفسّر عَنان السماء بالغيم الأبيض ، وهو أشد الغيوم ارتفاعا ، وقال : أما أعنان السماء فنواحيها ، هكذا قال الثقات ، ويخط السكرى مرّبي فنقلته ، وكان كذلك في كتب أبي بكر القسومسيّ الفيلسوف بمدينة السلام (٥) .

وقال إن الناهل الريان والعطشان ، هكذا جاء في الأضداد ، وهذا التفسير حفظته سماعا ورويته رواية (٦) .

(١) البصائر والذخائر ٢٤٧

(٢) البصائر والذخائر ١٤٦

(٣) البصائر والذخائر ١١٥

(٤) البصائر والذخائر ٣٣

(٥) المرجع السابق ٣٧

(٦) المرجع السابق ٣٨

٢ — وإذا اختصر الكلام الذى سمعه نبيه على اختصاره ، كقوله فى آخر جواب أبى سليمان له عن سؤال من أسأله : « وكان ذيل الكلام أطول من هذا ، شمرته خوفاً من جناية اللسان فى الحكاية ، ونزوة القلم فى الكتابة » ^(١) .

٣ — وإذا حكى بالمعنى ، وعبر هو بأسلوبه صرح بذلك ، كقوله : فقال كلاماً كثيراً ، أنا أحكيه على وجهه من جهة المعنى ، وإن انحرفت عن أعيان لفظه وأسباب نظمه ، فإن ذلك لم يكن إملأ ولا نسخاً ، وأجتهد أن ألزم متين المراد وسميت المقصود » ^(٢) .

وقوله : « حصلت — حفظك الله — المسألة بعد تشذب الكلام فيها ، ووعيتها جهدى من أولها إلى آخرها ، بطولها وعرضها ، ودخلها ومغزها . ولا أشك فى أطراف زلت عنى عند اختلافها واقتباسها . وقد تقفّت الجواب عنها على أوجه ، أنا أجتهد فى الإعراب عنها فى هذا الموضع بمبلغ وسمى . فإنى بين قائمة لأعلم لى بها ، وبين زيادة لا يطمئن متن الكلام إلا بها . وكلتاها خطة صعبة . ولولا كلف النفس بالعلم ، ومحبتها للفائدة لكان الإضراب عنها اذّب عن العريض ، وأصون للقدر ، وأبعد من استدعاء الأئمة ، ممن لعله لو أتى بهذا المقدار لكان عندى عظيم المنّة ، حقيقة بالشكر والمحمدة » ^(٣) .

وهذه الأمانة هى التى جمعت القفطى ينقل عنه وحده ما قاله فى إخوان الصفا .

(١) المقابسات ٢٥٩

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٠٨/٣

(٣) المقابسات ١٢٤

قال القفطى : كتّم مصنفو هذه الرسائل أسماءهم ، فاختلف الناس فى الذى وضعها ، وكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدّس والتخمين . . .

ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفها ، حتى وقفت على كلام لأبى حيان التوحيدى ، جاء فى جواب له . . . فى حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة ، وهو . . . » (١) .

٤ — وكان أبو حيان أميناً دقيقاً فى وصف مجالس العلم والمناظرة ونقل الحوار بين العلماء والأدباء ، كما سنعرف من تحليل كتبه ودراسة خصائصه الفكرية والفنية . وكان أميناً دقيقاً فى تسجيل الحوادث .

(١) من ذلك أنه ذكر القبض على أبى الفتح ابن العميد ، ونقل ياقوت تفصيل الحادث عن أبى حيان وعن غيره ، وقدم لما نقله عن أبى حيان بقوله : « وقد نقلتها ها هنا عنه بكلمها ، فإنى لم أجد أحداً ذكرها أكل منه » (٢) .

ويحذر بنا أن نتذكر إخفاق أبى حيان فى صلته بابن العميد ، ونتذكر تأرّده منه فى كتابه (مثالب الوزيرين) لنزداد إكباراً لأمانته ودقته وهو يؤرخ لحادث وقع لشخص لا يوده ، ولا يدين له بمكرمة عليه . ولو أنه كان غير أمين لانتَهز هذه الفرصة للحط من شأن ابن العميد والتجنى عليه .

نقل ياقوت عن أبى حيان قوله (٣) :

قال : ولما مات ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة اجتمع ذو الكفائتين

(١) تاريخ الحكماء . مختصر الزوزنى من إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى

٨٢ — ٨٨

(٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢١٥

(٣) معجم الأدباء ١٤ / ٢١٦

أبو الفتح وعلى بن كامة أحد أمراء الدينم والأعيان ، وتماهدا وتوثقا وتحالفا ، وبذل كل واحد منهما الإخلاص لصاحبه والمودة في السر والعلانية ، والذب والتوقير عند الصغير والكبير ، واجتهدا في الأيمان الغامسة^(١) والمعقدة الموثقة ، ودبرا أمر الحيش ، ووعدا الأولياء ، وردا النافر ، وركبا الخطر الخطا ، وعانقا الخطب العاقر ، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصة بمجد من نفسه ، وصرامة من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربه .

فلما ورد مؤيد الدولة الري من أصبهان وصادف الأمر متسقا ، ولقي كل فتى مرتقا بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأي الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند فسكرها ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها نظمت لك الملك ، وحفظت لك الدولة ، وضئت الحريم ، فإن خالفت هذه الزيادة هواك فأسقطها فاليد الطولى لك .

وكان ابن عباد قد ورد وخطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره غير نافذ ، هذا في الظاهر ، وأما في الباطن ، فكان يخلو بصاحبه ويؤنبه على أبي الفتح بما يجد السبيل إليه من الطعن والقدح ، فأحس بذلك ابن العميد ، فألب الأولياء على ابن عباد ، حتى كثر الشغب وعظم الخطب ، وهم يقتله وقال للأمر : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتسكت حبلاها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام^(٢) الحسف ، والأحرار لا يصبرون على نظرات الذل وغمرات الهوان . فقال له في الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك مقبول ، فما الذي يتردد فورتك عنه ؟ قال : ينصرف إلى أصبهان موفورا ، فوالله لو طالبت به منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه .

(١) الأيمان الغامسة واليمين العموس : التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار

(٢) أى أذل وأهان ، من أسامه الحسف : أى أذافه الذل والهوان

ولئن أحس الأولياء الذين أصطنعهم بمالى وإفضالى بكلامه فى أمرى ، وسميهم
فى فساد حالى ، ليكون هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا خطف ، ومن
المزن إذا نطف . فقال له : لا تخالف لرأيتك ، والنظر لك ، والنظام بيدك .

وتلطف ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أتظلم منك إليك ،
وأتحمل بك عليك وهذا الاستيحاء سهل الزوال إذا تألفت الشارد من حملك ،
وعطفت على الشائع من كرمك . ولتى ديوان الإنشاء واستخدمنى فيه ، ورتبى
بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمى برضاك فى صنيعة والدك ،
واتخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يحتمل أن تسكر^١ على مابنى ذلك الرئيس قهدهم
وتنقضه ، ومتى أجبته إلى هذا وآمنتى فى أن أكون خادمك بمحضرتك ، وكتاباً
يطلب الرأفة عندك فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النائرة التى قدثارت
بسوء ظنك ، وتصديقت أعدائى على^٢ . فقال فى الجواب : والله لا تجاورنى فى بلد
السرى ، وبمحضرة التدبير وخلوة الأمير ، ولا يكون لك إذن^٣ على ولا عين^٤ عندي ،
وليس لك منى رضا إلا بالعود إلى مكانك من أصبهان ، والسلك^٥ مما تحدث^٦
به نفسك .

فخرج ابن عباد من الرى على صورة قبيحة متنكراً بالليل ، وذلك أنه خاف
الفتك والغلبة ، وبلغ أصبهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تملى وصدره يغور ، والخوف
شامل والوسواس غالب . وهم أبو الفتح بإنفاذ من يطالبه ويؤذيه ويهينه ويسمغه ،
فأحس هو بالأمر .

فحدثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المغازة إلى نيسابور لما ضاق عطنه^(١) ،

(١) العطن : مبرك الإبل والغنم ، وهذا كناية عن الخوف من كل ما حوله

واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لفي هذا وما أشبهه ، حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت الدلولف^(١) إليهم ، وتشاورت في الإطلال^(٢) عليهم .

فقال الأمير لأبي الفتح : ما الرأي وقد نعى إلينا ما تعلم من طمع خراسان في هذه الدولة بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس الرأي إلى ولا إليك ، ولا اللهم على ولا عليك ، ها هنا من يقول لك : أنت خليفتي ، ويقول لي : أنت كاتب خليفتي ، يُدبر هذا المال والرجال وهو الملك عضد الدولة أخوك . قال : فأكتب إليه وأشعره وأشع ما قد منينا به وأشهره ، وسله يداوى هذا الداء . فسكتب أبو الفتح وتلاف . فصدر^(٣) في الجواب : إن هذا الأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا وله ابن فلم يحمل إليه من إرثه شيء زوياً عنه واستثنى آدونه ، ثم يخاطب بأن يغرم شيئاً آخر من عنده فدكسبه بجهده ، وجهه بسميه وكده ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء في هذا لم يكن عندهم منه بنة إلا التعمجب والاستطراف ، ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين : أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطالب بإخراج ما ليس عليه ، وإن شاء حاكت كل من سام هذا إلى من يرضى به .

فلما سمع مؤيد الدولة هذا قال لأبي الفتح : ما ترى ؟ قال : قد قلت وليس لي قول سواه ، هذا الرجل هو الملك والدبر والمال كله ماله ، والبلاد بلاده ، والجند جنده ، والكل له ، والاسم والجلالة عنده ، وليس ها هنا إرث قد زوى عنه ، ولا مال استوثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها في أمر الجدد فما لا تعلق له باللب ،

(١) أزمعت : اعتزمت ونوت . الدلولف : التقدم والزحف

(٢) يريد بخبرتهم .

(٣) يريد بجاء الجواب من عضد الدولة فصدر

أما خراسان فكانت منذ عشرين سنة تطلبنا بالمال، وتهددنا بالسير والحرب، ونحن مرة نحارب ومرة نسالم، وفي خلال ذلك تفرق المال بعد المال على وجوه مختلفة، فاحسب أن ركن الدولة حتى ^{بقي} . هل كان له إلا أن يدبر بماله ورجاله وذخائره وكنوزه؟ أفليس هذا الحكم لازماً لمن قام مقامه وجلس مجلسه، وألقى إليه زمام الملك، وأصدر عنه كل رأى؟ وهل علينا إلا الخدمة والنصرة والمناجحة في كل ما سهل وصعب؟ كما كان عليه ذلك بالأمس من جهة الماضي.

فقال مؤيد الدولة: إن الخطب في هذا أراء يطول، والكلام يتردد، والمناظرة تروى، والفريضة تمول، والفرصة تفوت، والعدو يستمكن، وأرى في الوقت أن نذكر وجهاً للمال حتى نحتج به، ثم نستمد في الثاني منه، ويرضى الجند في الحال، وتتحزم في الأمر، ونظهر المرارة والشكيمة بالاهتمام والاستعداد، حتى يطير الخبر إلى خراسان بجدنا واجتهادنا، وحزمنا واعتمادنا، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم، وحسباً لأطباعهم، وباعثاً على تجديد القول في الصالح ورد الحال إلى العادة المألوفة. فقال: نسأل الله بركة هذا الأمر، فقد نشأت منه رائحة منكثرة، ما أعرف للمال وجهاً، أما أنا فقد خرجت من جميع ما عفى مرة بما خدمت به الماضي تبرعاً ^{حدثان} (١) موت أبي، ومرة بما طالبني به سراً، وأوعدني بالمزل والاستخفاف من أجله، ومرة بما فرمت في المسير إلى العراق في نصرة الدولة، وهذه وجوه استنفدت قلى وكثرى، وأنت على ظاهري وباطني، وقد غرمت إلى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كائن متمن على أولياء نعمتي، وإن سكت كنت كائن كالتهم عند من يتوقع عثرتي، فهذا هذا. وأما أموال الدواحي فأحسن أحوالنا فيها أنا نرجها في نواحيها مع النفقة الواسمة في الوظائف والمهمات التي تنوبنا، وأما

(١) مصدر حدث الشيء: ابتدأ، يريد عند موت أبي.

العامة فلا أحوج الله إليها ، ولا كانت دولة لا تثبت إلا بها وبأوساخ أموالها .
فقال مؤيد الدولة وكان ملقناً : هذا ابن كامة وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال
والحصون ، ويده بلاد ، وقد جمع هذا كله في دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا
وبدولتنا ، وهو جام^(١) ماشيك ، ومختوم^(٢) مافض^(٣) مذكان ما تقوول فيه .
قال . مالى فيه كلام ، فإن بينى وبينه عهداً ما أخيس^(٤) به ولو ذهبته نفسى . فقال :
اطلب منه القرض . قال : إنه يستوحش ويراه باباً من النضاضة ، وقدر القرض
لا يبلغ قدر الحاجة ، فإن الحاجة ماسة إلى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه
أنفع لنا وأردُّ علينا وأحصن لنا وإلينا من موقع ذلك المال ، وبعد رأيه وتديره
واسمه وصيته فوق المطلوب منه .

قال : وإذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهذا رأى ليكون
نتيجته من ثم . قال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غدر .
قال ياهذا : فأنت كاتبى وصاحب سرى والزمم فى جميع أمرى ، ولا سبيل
إلى إخراج هذا الحديث إلى أحد من خلق الله ، فإن أنت لم تقول حارّه وقارّه ،
وغفّه وصميده ، ومحبو به ومكروهه فمن ؟ -

قال يأيها الأمير ا : لا تسمى الخيانة ، فإنى قد أعطيته عهداً يذر الديار
بلاقع^(٤) ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة . فقال : إنى لست أسومك
أن تقبض عليه وأن تسمى إليه ، أشر بهذا المعنى إلى الملك عصد الدولة وخلاك
ذم ، فإن رأى الصواب فيه تولاه دونك ، وإن ضرب عنه أعضائنا رايًا غير مارأينا ،

(١) الجام : المجتمع من الشيء ، يريد أن ماله مجتمع ما شيك . شيك مجهول من
شاكه : آله بالشوك ، وذلك كناية عن كثرة ماله
(٢) مخنوم مافض . كناية عن أن ما يملكه لم تمسه يد
(٣) أخيس : أنكث بعهده وأتقضه
(٤) أى يتركها خراباً جمع بلقع

وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدلها ، وإنما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدي كُتِبَ حرفين : إنه لا وجه لهذا المال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ، ولا مطالبته به وفاء له بالمهد ، وثباتاً على اليمين ، وجرياً على الواجب ، ولا أقل من أن تجيب إلى هذا القدر ، وليس فيه شئ مما يدل على النكث والخلاف والتبدل . وما زال هذا وشبهه يتردد بينهما حتى أخذ خطه بهذا على أن يصدره إلى أخيه عضد الدولة بفارس .

فلما حصل هذا الخط عنده وجن عليه الليل أحضر ابن كامة وقال له : أما عندك حديث هذا الخنث فيما أشار به على الملك فى شأنك ؟ وأردد عليه فى حقك وأمرك ، وإطاعه فى مالك ونفسك ، وتسكثيره عنده ما تحت يدك وناحيةك ؟ فقال ابن كامة : هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ، ولعل عدواً قد كاده به ، وببنى وبينه ما لا منفذ للسحر فيه ، ولا مساع لظن سيئ به . قال : ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت ، ودع هذا كله فى الریح ، هذا كتابه إلى الملك بما عرفتكم ، وخطه بيده فيه .

قال على بن كامة : أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كتابي . فأحضر كاتبه الخثعمي فشهد أن الخط خطه ، فحل على بن كامة عن سجيته ، وخرج من مسكنه وقال : ما ظننت بعد الأيمان المغلظة التى يبيننا أنه يستجيز مثل هذا .

قال الأمير : أيها الرجل ، إنما أطلبك الملك على سر هذا الدلام فيك ، لتعرف فساد ضميرك ، وما هو عليه من هنات أخر ، وآفات هى أكبر ، فإنه هو الذى حرك من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى إلى أخينا بهمدان — معنى فمخر الدولة — أخبارنا ، وهو عين الاختيار^(١) هاهنا ، وقد اعتقد أنه يعمل فى تحصيل هذه البلاد ، ويكون وزيراً بالمراق ، فقد ذاق من بغداد ما لا يخرج من ضرسه إلا بنزع نفسه ، وكان أبو نصر الجوسى قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يقتل الجبل ويبرم ،

(١) بختيار هو من الدولة البويهى .

ويهاب مرة ويقدم ، وكان الحديث قد بيت لبيل ، واهتم به قبل وقته بزمان .
فقال علي بن كامة: فما رأى الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك في القبض عليه
وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظن بنا أنا هجمنا على ناصحنا ،
ومربب^(١) نعمتنا ، وناشيء دولتنا ، فهجنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الأمر .
قال : فأنا أكتفيكموه . ثم قبض عليه وكان منه ما كان ، واستدعى ابن عباد من
من أصفهان ، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق وجد رتب^(٢) .

(ب) ومن ذلك أحاديثه عن علماء عصره وأدباؤه ، ودقته في نقل ما دار
بمجالسهم من آراء وفتاوى .
كقوله^(٣) :

وقال أبو حيان في كتاب محاضرات العلماء : حضرت مجلس شيخ الدهر ،
هو قريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل ، أبي سعيد السيرافي ، وقد أقبل
علي الحسن بن مبرّد وويه الفارسي ، يشرح له ترجمة المدخل إلى كتاب سيديويه من
تصنيفه . فقال له : علق عليه ، واصرف همّك إليه ، فإنك لا تدركه إلا بتمب
الحواس ، ولا تقصوده إلا بالاعتزال عن الناس .

فقال : — أيد الله القاضي — أنا مؤثر لذلك ، ولكن اختلال الأمر
يقصّر الحال يحول بيني وبين ما أريده . فقال له : ألك عيال ؟ قال : لا . قال :
عليك ديون ؟ قال : دريهمات . قال : فأنت كريخ القلب ، حسن الحال ، ناعم
البال ، اشتغل بالدرس والذاكرة ، والسؤال والمناظرة ، واحمد الله تعالى على
خفة الحاد^(٤) ، وحسن الحال . وأنشده :

(١) كانت هذه الكلمة في الأصل (مرتب) . ويقال رب فلان الصي وربيّه : أي رباه حتى أدرك

(٢) من رتب الشيء : جمّله ياتّم بعضه مع بعض

(٣) معجم الأدباء ١٥٢/٨

(٤) خفة الحاد : يقال فلان خفيف الحاد أي قليل المال والعيال

إذا لم يكن المرء مال ولم يكن له طرق يسمى بهن الولائد
وكان له خبز وملح ففيهما له بلغة حتى تجيء الموائد^(١)
وهل هي إلا جوعة إن سدتها فكل طعام بين جنبيك واحد

قال : وكان يقرأ على أبي سعيد السيرافي الكامل للبرد ، فجاءه أبو أحمد بن مردك وكان هذا من ساوة ، واستوطن بغداد وولد بها ، وكان له قرب ومنزلة من أبي سعيد ، يوجب حقه ويرطاه له . فقال : أيها الشيخ عندي ابنة بلغت حد التزويج ، وجماعة من الغرباء والبغداديين يخطبونها ، فما ترى ؟ ومن أزوجها ؟ فقال : فمن يخاف الله تعالى ، وأكثرهم تقيّة وخشية منه ، فإن من يخاف الله إن أحبها بالغ في إكرامها ، وإن لم يحبها تخرج^(٢) من ظلمها . فاستحسننا ذلك وأقبلناه . ثم قال : لا تنسبوا هذا إليّ ، إنما هذا قول الحسن .

قال : وشبيه هذه الحكاية : أن رجلاً وقف على الحسن فقال : علمي ما يقربني إلى الله تعالى وإلى الناس ، قال : أما ما يقربك إلى الله فمسألته ، وأما ما يقربك إلى الناس فترك مسألتهم .

وقال : وتأخر بعض أصحابه عن مجلسه في يوم السبت ، وكان يرمي حق أبيه فيه ، لأنه كان وجيهاً شريفاً ، فلما كان يوم الأحد قال له : ما الذي أخرك ؟ فأشار إلى شرب الدواء ، ولأجله تأخر عن المجلس .

قال أبو حيان : وكان أبو سعيد يفتي على مذهب أبي حنيفة وينصره ، فجري حديث تحليل النبيذ عنده ، فقال له بعض الخراسانيين : أيها الشيخ دعنا من حديث أبي حنيفة وقول الشافعي . ما ترى أنت في شرب النبيذ والقدر الذي لا يسكر ويسكر ؟ فقال أما المذهب فمعرفة لا عدول عنه ، وأما الذي يقتضيه

(١) الموائد جمع عائدة : وهي المعروف والصلة والعطف والمنفعة

(٢) تخرج من الأمر : تأثم ، وحقيقته : جانب الحرج أي الإثم وهو المراد

الرأى ويوجب العقل ، ويلزم من حيث الاحتياط ، والأخذ بالأحسن والأولى ، فتركه والمدول عنه .

فقال له : بين لنا — عافاك الله — . فقال : اعلم أنه لو كان المسكر حلالا في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، لكان يجب على العاقل رفضه وتركه ، بحجة العقل والاستحسان . فإن شاربهُ يحول على كل ممصية ، مدفوع إلى كل بلية ، مذموم عند كل ذى عقل ومروءة ، يحمله عن مراتب العقلاء والفضلاء والأدباء ، ويحمله من جملة السفهاء . ومع ذلك فيضر بالدماع والعقل ، والسكبد والذهن ، ويولد القروح في الجوف ، ويسلب شاربهُ ثوب الصلاح ، والمروءة والمهابة ، حتى يصير بمنزلة الخبث المخرق^(١) والمثبشج^(٢) ، يقول بغير فهم ، ويأمر بغير علم ، ويضحك من غير عجب ، ويبكي من غير سبب ، ويخضع لمدونه ، ويعول على وليه ، ويهمل من لا يستحق العطية ، ويمنع من يستوجب الصلة ، ويهدر في الموضع الذى يحتاج فيه أن يمسك ، ويمسك في الموضع الذى يحتاج فيه أن يهدر . يصير حامده ذاماً ، وأفماله ملاماً ، عبده لا يؤقره ، وأهله لا تقره ، وولده يهرب منه ، وأخوه يفرغ عنه . يتمرغ في قيئه ، ويتقلب في سلاتحه^(٣) ، ويبول في ثيابه . وربما قتل قريبه ، وشتم نسيبه ، وطلق امرأته ، وكسر آلة البيت ، ولفظ بالحنى ، وقال كل غليظة وفحش . يدعو عليه جاره ، ويذكر به أصحابه . عند الله ملوم ، وعند الناس مذموم ، وربما يستولى عليه في حال سكره مخايل الهموم ، فيبكي دماً ، ويشق جيبه حزناً ، وينسى القريب ، ويتذكر البعيد . والصبيان يضحكون منه ، والنسوان يفتعلن النوادر عليه . ومع ذلك فبعيد من

(١) الخبث : من خبطه الشيطان : أى مسه بأذى وضر به ، والمخرق ، من الخرق وهو الحق ، والمثبشج : من اثبأج الرجل ، أى ضخم واسترخى
(٢) من سلاتح الرجل : أى تقوط

الله ، قريب من الشيطان ، قد خالف الرحمن في طاعة الشيطان ، وتمسك من ناصيته ، وزين في عينه إتيان الكبائر ، وركوب الفواحش ، واستحلال الحرام ، وإضاعة الصلاة ، والحنث في الإيمان ، سوى ما حل به عند الإفاقة من الندامة ، ويستوجب من عذاب الله يوم القيامة .

فقال الرجل : والله إن قولك ووصفك له أعلق بالقلب من كل واضح وبرهان لأصح ، وحجة وأثر ، وقول وخبر .

فقال له ، لولا ذهاب الوقت لا عوض له ، لاستدلت لكل خصلة ذكرتها ، ولقطة أوردتها بآية من كتاب الله ، أو خبر مأثور عن رسول الله ﷺ ، حتى قلت : إن الألفاظ مشتقة من ذاك مستنبطة منه ، ولكن الأمر في هذا أظهر وأشهر ، من أن يُبَيَّن ويوضح . ولأبي حنيفة مسائل لا أرتضيها له ، وقد خالفه فيها أعيان أصحابه ، والناقلة لمذهبه ، ولكن لكل أريب هفوة ، ولكل جواد كبوة ، والكلام إذا كثر لا يخلو من الخطأ ، والقول إذا تنابع لا يمرى من تناقض ، — والله الممين على أمر الدنيا والدين . .

وبعد :

فقد اتهم أبو حيان بالزندقة زورا ، ورأينا أن تمبده وتسوفه وأدعيته وما بقى من مؤلفاته كغيل بدحض هذه التهمة .

وكذلك اتهم بالوضع والاختلاق ، ورأينا أنه أمين فيما نقل ، وفيما روى ، وفيما وصف ، وإذا فهو بريء من هذه التهمة أيضاً .

ولم يكن الفرض من الحملات على الرجل إلا الغض من شأنه ، والتغفير من قراءة أدبه ، والإعجاب به ، لأسباب شتى بسطناها .

لكن الحقيقة تأبى إلا أن تشرق ، فتمحو ظلمات التعامل والتجنى والإغفال ، فإذا أبو حيان جدير بأن يحتل مكانه في المسادرة بين كبار الأدباء والعلماء .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣

مقدمة

١٥ - ٧

عصره السياسى

مبدأ الضعف . نفوذ الجند الأتراك . الحركات الانفصالية . العداء
بين الولايات . الثورات الداخلية . العدوان على الخلفاء والاستهانة
بهم . المهجوم من الخارج . لمحات من القوة .

٢١ - ١٦

عصره العلمى والآدبى

لا تلازم بين الحالة السياسية والحالة العلمية والأدبية . أسباب
نشاط الحركة العلمية والأدبية فى القرن الرابع . أمثلة من تشجيع
الولاة للعلم والأدب . استكمال نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية .
ظواهر جديدة فى الحركة العلمية والأدبية : نضج العلوم ، تطور
النثر الفنى ، ظهور القصص والمقامات ، كثرة المكتبات ،
ازدهار المذهب الشيعى ، كثرة النحل وصراعتها ، فتور الشعوبية .
ظهور شخصية العواصم والمدن ، اتخاذ اللغة العربية اللغة الرسمية
والأدبية ، العواصم الجديدة مراكز الثقافة ، ظهور الإقليمية فى
الآدب ، كثرة العلماء والأدباء .

٢٨ — ٢٢

معالم حياته

اسمه وكنيته . مولده . وفاته . أصله . حرفته .

٤٢ — ٢٩

ثقافته

ينابيع ثقافته ، أم ألوانها : الفلسفة ، الفقه والحديث ، اللغة
والفحو ، علم الكلام ، الشعر .

٧٣ — ٤٣

صلاته بوزراء عصره

مكانة العلماء والأدباء في القرن الرابع

صلته بابن العميد : من ابن العميد المقصود ؟ الأدلة على أنه

٥٣ — ٤٣

أبو الفتح لا أبو الفضل

صلته بابن عباد : من ابن عباد ؟ لماذا أخفق أبو حيان في صلته

٦٧ — ٥٤

به ؟ هجاء أبي حيان له

صلته بابن سعدان : من ابن سعدان ؟ تفاضل ابن سعدان عنه ،

٧٣ — ٦٨

أسباب هذا التفاؤل

٨٩ — ٧٤

أخلاقه

حدة لسانه . طمعه . خنوعه . استشهاده الغني أحيانا . قلة خبرته

بمعاملة الوزراء . ضعف عزيمته . شكواه . ذمه لأهل زمانه .
نظره إلى العلم على أنه وسيلة لا غاية . تجريحه لأكثر معاصريه

٩٧-٩٠

دينه

اتهامه بالزندقة . تنفيذ هذه التهمة .

١٠٦-٩٨

تصوفه

اليقين بصوفيته . نوع تصوفه . تصوفه حر . الفرق بين تصوفه
وتصوف الآخرين . وجه الاتفاق بينه وبينهم

١١٢-١٠٧

بؤسه وإغفاله

مظاهر بؤسه . أسبابه .

١٢١-١١٣

إحراق كتبه

إحراق كتبه . خلاصة دفاعه . ضعف هذا الدفاع . لومه
على فعلته . رسالته التي دافع بها .

١٣٦-١٢٢

اتهامه بالوضع

اتهام بعض المحدّثين له . الباعث على اتهامهم . رساله

أبي بكر وعمر إلى علي . الذين نفوا هذه الرسالة عن أبي بكر
وعمر ونسبوها إلى أبي حيان . الذين أثبتوها لأبي بكر
وعمر . أدلتى على أن الرسالة موضوعة . ربما كان الواضع
أبا حيان وربما كان غيره .

أمانته في الرواية والنقل والوصف ١٣٧-١٥٠

أمانته ودقته . مظاهرها : تنبيهه أحيانا على أن الخبر
بنفسه . تنبيهه — إذا اختصر — على الاختصار . تنبيهه
— إذا حكى بالمعنى — على أنه يميز بأسلوبه .
دقته في وصف مجالس العلم والمناظرة . مثالان لهذه الدقة

موضوعات الجزء الثانى

مؤلفاته • المطبوع منها والمخطوط والمفقود .

تحليل كل منها :

خصائصه الفكرية والفنية .

موازنة بينه وبين كتاب عصره .

موازنة بينه وبين الجاحظ .

المراجع

سنذكرها فى آخر الجزء الثانى إن شاء الله

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها : (من سلسلة حياة المجتمعات)

١ - قصة الملكية في العالم : تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي
والدكتور حسن سمعان

٢ - الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمي هلال

٣ - زرادشت : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر

٤ - كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سمعان

٥ - الفكاهة في الأدب العربي : من الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد الحوفي

٦ - قصة الزواج والعزوبة في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

٧ - تاريخ الفكر الاقتصادي : من سلسلة الاقتصاد السياسي
تأليف الدكتور لبيب شقير

- ٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفي حسين أبو طالب
- ٩ — ابن خلدون ، منشئ علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي
- ١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوي طهانه
- ١١ — الحرية العامة بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي : من سلسلة
الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طهيمية الجرف
- ١٢ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفران
- ١٣ — أبو حيان التوحيدي : في جزأين . من سلسلة قادة الفكر في الشرق
والغرب تأليف الدكتور أحمد الحوفي
-

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دارالعلوم

الكتاب السادس من هذه السلسلة :

الجزء الثانى « أبو حيان التوحيدي »

بقلم

الدكتور أحمد محمد الحوى

مستند الطب والنشر
مكتبة نخضة مصر بالنجدة

مطبعة الزبالة
شارع عمود المشاوي ٣ عايدين

